من بلاغة التنزيل

في

ذكر جدال الطواغيت

(قارون والسامري والنمروذ)

إعداد

د/ زينب كمال سليم محمد

مدرس البلاغة والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنات بني سويف

من بلاغة التنزيل في ذكر جدال الطواغيت

[قارون والسامري والنمروذ]

د/ زينب كمال سليم محمد

المقدمة

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ؛؛؛

فيتناول هذا البحث شيئا من بلاغة الذكر الحكيم في رصد ظاهرة الحوار الجدلي لدى طواغيت القرون السابقة ممن ورد ذكرهم في القرآن الكريم ، أخص منهم النمروذ ، والسامري ، وقارون.

ويرجع **سر اختياري لموضوع البحث**:

إلى أني لاحظت أن مبدأ الكفر لدى طواغيت القرون السابقة ومن تبعهم من كفار القرون التالية كان في جدال بغير وجه حق نابع من استكبار النفس وتعاليها بطرا وغرورا عن الاعتراف بالحق والإذعان له ، فقد كفر النمروذ استكبارا ، وجادل غرورا ، حتى دعاه بطره وغروره إلى ادعاء الألوهية بل والمجادلة في إثبات ذلك ؛ استخفافا بالعقول ، وكُفر السّامري كان بطرا مع علمه بالحق فقد كان على مقربة من موسى –عليه السلام– ومع ذلك سولت له نفسه الضلال والإضلال ، والأمر نفسه تحقق مع قارون ؛ إذ تعالى واستكبر علوا في الأرض فادعى لنفسه إجراء أسباب الرزق ، ورَدَّ ما حباه الله به من المال إلى علمه وخبرته لا إلى فضل الله عليه ونعمته ، وجاهر بذلك استعلاء واستكبارا ؛ لذا رغبت في بيان كيف وصل بهم الحوار الجدلي النابع من بطر النفس وكبرها إلى سوء الحال والمآل.

وقد جرت **خطة البحث** في مقدمة وتمهيد ، ومباحث أربعة ، وخاتمة :

المقدمة : ذكرت فيها عنوان الموضوع ، وسبب اختياري له ، والخطة الموضوعة لدراسته.

التمهيد : تناولت فيه معنى الحوار والجدال ووجه اشتراكهما في الدلالة.

المباحث الأربعة:

المبحث الأول: من بلاغة الخطاب في جدال النمروذ مع سيدنا إبراهيم – عليه السلام–.

المبحث الثاني : من بلاغة الحوار بين موسى –عليه السلام– والسامري وأتباعه.

المبحث الثالث : من بلاغة التنزيل في ذكر جدال قارون مع قومه.

المبحث الرابع: الخصائص البلاغية المشتركة للحوار الجدلي في القصص الثلاث.

هذا والله أسأل التوفيق والسداد إنه على ذلك قدير .

التمهيد

الحوار والجدال ، ووجه اشتراكهما في الدلالة

فرق بعضهم بين الحوار والجدال ؛ فهما يلتقيان في كونهما مناقشة بين طرفين ، ويفترقان في كون الحوار :

(مراجعة الكلام والحديث بين طرفين ينتقل من الأول إلى الثاني ثم يعود إلى الأول دون أن يكون بين هذين الطرفين ما يدل بالضرورة على وجوب الخصومة)([1])

أما الجدال: فهو (المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة)[2]

وعرفه الجرجاني بأنه: (القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات ، والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان ، أو هو دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة)[3]

وقيل عن الجدال أيضا أنه :" المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة ، وأصله من جدلت الحبل ؛ أي أحكمت فتله ، ومنه الجدال ، فكأن المتجادلين يفتل

([1]) في أصول الحوار / الندوة العالمية للشباب الإسلامي ص١١ ط١ دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٩هـ ١٩٩٨م

[2] المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسن بن محمد الأصفهاني ١١٧/١ ط١ مكتبة نزار مصطفى الباز ١٤١٨هـ ١٩٩٧م

[3] التعريفات لعلي بن محمد الجرجاني –تحقيق/ إبراهيم الإبياري١٠١-١٠٢ ط١ دار الريان للتراث د.ت

كل واحد الآخر عن رأيه ، وقيل: الأصل في الجدال: الصراع ، وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة ؛ وهي الأرض الصلبة. "[1]

وعُرِّف أيضا بأنه: (تردد الكلام بين اثنين قصد كل واحد منهما تصحيح قوله ، وإبطال قول صاحبه)[2]

"والجدل ظاهرة إنسانية لازمت الإنسان منذ وُجِد هذا الكون."[3]

وهذا على الأعم الأغلب ، فقد تتعاور اللفظتان الدلالة ؛ فتأتي لفظة (الجدل) للحديث الطيب ، ومنه قول الله تعالى: " فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ "[4]

وقوله تعالى: " وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ "[5]

---

[1] المفردات في غريب القرآن ١/١٧٥

[2] المنهاج في ترتيب الحجاج / أبو الوليد الباجي- تحقيق/ عبد المجيد تركي ص١١ ط٣ دار الغرب الإسلامي ببيروت ٢٠٠١م

[3] الإيضاح لقوانين الإصلاح في الأدب والمناظرة – تحقيق: محمود السيد الدغيم ٩٥ ط١ مكتبة مدبولي ١٩٩١م

[4] سورة هود ٧٤-٧٥

[5] سورة النحل جزء آية ١٢٥

والجدال في القرآن الكريم نوعان :

" محمود ومذموم ؛ فالمذموم ما كان بقصد الغلبة والرياء والجدل للباطل أو بغير علم ، أو لقصد الجدل فقط ، كما قال –عز وجل– : (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ [١]) ، فالقصد هنا الجدل للجدل ، وقال: (مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ [٢]) ، الجدل هنا مكابرة ؛ لأنها مجادلة في أمور بديهية ... ، وأما الجدال المحمود فهو ما كان بقصد الوصول إلى الحق ، ودفع الباطل والدعوة بالحسنى ؛ ولذلك قرنه الله –عز وجل– بالدعوة فقال: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ[٣]) ، وقال –عز وجل–: " وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ [٤])."[٥]

ومعنى هذا أن لفظة الجدال قد تأتي بمعنى المصارعة والمغالبة في القول والرأي ، وقد تلتقي مع مدلول لفظة الحوار ؛ فتستخدم لتبادل الآراء بالحسنى ، إلا إن الحوار في البحث هنا ينحو نحو الجدال بمعنى اللدد في الخصومة ، يتضح ذلك في قصة النمروذ أشد وضوح.

---

[١] الزخرف جزء آية ٥٨

[٢] غافر آية ٤

[٣] النحل جزء آية ١٢٥

[٤] العنكبوت جزء آية ٤٦

[٥] منهجية الحوار الجدلي في القرآن الكريم والسنة النبوية د/ أحمد إدريس الطعان ص٦ ط١ دمشق د.ت

المبحث الأول

من بلاغة الخطاب في جدال النمروذ مع سيدنا إبراهيم -عليه السلام-

قال الله تعالى: " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[1] "

[1] سورة البقرة ٢٥٨

" أَلَمْ تَرَ "

وجه ارتباط الآية بما سبقها ، والتي ورد فيها : " وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ"[١] " الاستشهاد على ما ذُكر من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت وتقرير له."[٢]

الخطاب لسيدنا محمد –ﷺ– ، والرؤية بمعنى العلم ، فإذا جاء فعل الرؤية (متعديا إلى ما ليس من شأن السامع أن يكون رآه كان كلاما مقصودا منه التحريض على علم ما عدي إليه فعل الرؤية ، وهذا مما اتفق عليه المفسرون.)٣

وعليه فالرؤية بمعنى العلم ، فالنبي محمد – ﷺ– لم يشاهد تلك الواقعة ، ولكن عندما يخبره المولى –جل شأنه– بها فكأنه رآها وعاينها حق اليقين.

والاستفهام تعجبي يتعجب فيه من حال النمروذ ، وقد أتاه الله الملك فجفا وطغى ، وبدَّل الشكر بالنكران ، والحمد بالجحود ، فاستحق أن يُتعجَب من حاله.

---

[١] سورة البقرة جزء آية ٢٥٧

[٢] إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود محمد بن محمد العمادي ٢٥١/١ ط١ دار إحياء التراث العربي ببيروت– لبنان د.ت

[٣] التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور ٤٧٦/٢ ط١ الدار التونسية للنشر د.ت

" إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ "

(الذي حاج إبراهيم في ربه هو ملك بابل : نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ، ويقال: نمروذ بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح.)[1] .

واختلف في وقتها (قيل عند كسر الأصنام وقبل إلقائه في النار ، وهو المروي عن مقاتل ، وقيل بعد إلقائه في النار وجعلها عليه بردا وسلاما.)[2]

وعبَّر بالموصول (الذي) ؛ تحقيرا من شأنه وتقليلا لقدره ؛ إذ لا يستحق أن يُصرح باسمه لحقارته ، فقد حاجّ إبراهيم في وجود الله مدعيا لنفسه الألوهية .

والضمير في (ربه) لإبراهيم –عليه السلام– ، وهنا أجد مفارقة في التعبير ؛ حيث ذكر لفظ الربوبية في جانب إبراهيم –عليه السلام– ، فقال: " حاجَّ إبراهيم في ربه" ، بينما ذكر لفظ الجلالة (الله) في جانب النمروذ ، فقال –عز شأنه– : " أن أتاه الله الملك" ، والضمير في (أتاه) عائد إلى النمروذ ، أحسبها –والله أعلم بمراده– أن في ذكر لفظ الربوبية مع الخليل –عليه السلام– شيئا كبيرا من العطف والحنو والرحمة ، وفي ذكر لفظ الجلالة في جانب النمروذ شيئا عظيما من بيان قدرة الله وهيمنته ومن بيان عزته وحكمته ، فهو العزيز الحكيم القادر على إنزال العقاب بالطاغية وإبادته.

---

[1] تفسير القرآن العظيم للحافظ أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي – تحقيق/ سامي بن محمد السلامة ٦٨٦/١ ط٢ دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م

[2] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة أبي الفضل شهاب الدين البغدادي – تصحيح وتعليق : السيد محمود شكري البغدادي ١٦/٣ ط١ دار إحياء التراث العربي ببيروت – لبنان د.ت

" أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ "

عبَّر بالماضي في (آتاه) ؛ للدلالة على تحقق إتيانه الملك ، فقد ملك زمنا طويلا ، قيل :

(إنه مكث أربعمائة سنة في ملكه)[١].

وذكر المسند إليه –لفظ الجلالة– وكان بالإمكان أن يقول: (أن أتاه الملك) ، ولكنه نصَّ عليه ؛ ليذكِّر بفضل الله عليه ، ويقرر إتيانه الملك ؛ لإقامة الحجة عليه في بيان نكرانه الفضل ، وكفره بالنعمة.

وعرَّف لفظة (الملك) ، فلم يقل : (ملكا) ؛ لما ورد من أن الله ملّكه الدنيا بأسرها ، فقد قيل إنه:

(ملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة : مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان: سليمان بن داود ، وذو القرنين ، والكافران: نمروذ بن كنعان ، وبختنصر)[٢]

وقوله تعالى: " أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ" متعلق بـ(حاجّ) على وجهين :

الأول : (أن يكون المصدر المؤوَّل ظرف ، وقد وقعت الظروف مصادر ، والمعنى على أنه حاج وقت أن أتاه الله الملك[٣]).

والآخر: (على أن المصدر المؤول من "أن والفعل" مفعول لأجله ؛ أي حاج لأن أتاه الله الملك ، على معنى : أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتو ؛

---

[١] تفسير ابن كثير ٦٨٦/١

[٢] السابق ٦٨٦/١

[٣] ينظر:تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله الزمخشري – تعليق: خليل مأمون شيحا ص١٤٧ ط٣ دار المعرفة ببيوت– لبنان ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م

فحاجّ لذلك ، أو على أنه وضع المحاجة في ربه موضع ما وجب عليه من الشكر على أن أتاه الله الملك ، فكأن المحاجة كانت لذلك.١)

وعلى التفسير الثاني يكون قول الله تعالى: " أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ" من باب الاستعارة التهكمية ؛ حيث استعار المحاجة المقتضية الكفر بالنعمة ، لشكر النعمة والاعتراف بها ، بتنزيل التضاد منزلة التناسب ؛ تهكما بالطاغية.

وبلاغة الاستعارة تبدو في بيان عظيم ذنبه ؛ إذ بغى في الأرض وتكبر على الخالق بمقابلته الإحسان بالإساءة ؛ فنصَّ الذكر الحكيم على ذلك ؛ ليسجل عليه بغيه بغير حق واستحقاقه العذاب ؛ وليبث في ثنايا قصته مع ربه الدروس والعبر للعالمين .

"إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ"

هنا تبدأ المحاجة ، عبَّر فيها بالماضي (قال) ؛ ليبين تحقق وقوع القول من سيدنا إبراهيم –عليه السلام– ، إذ ابتدأه بعد نكرانه ببيان قدرة الله ، فذكّره بواحدة من أعظم قدرات الله –عز وجل– ، وهي قدرته على نفخ الروح بالإحياء ، وعلى سلبها بالإماتة ، فقال: "ربي" معبرا بلفظ الربوبية ، ومضيفا لفظ الربوبية لذاته ؛ دلالة على قربه من الله –عز وجل– ناصره في حجته ومعينه ، ومناسبا بينها وبين قول الله تعالى في مطلع الآية: " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ" .

ثم ذكر الموصول (الذي) بعد ذكره للفظ الربوبية ، وكان يمكنه الاكتفاء به فيقول:(ربي يحيي ويميت) ، ولكنه ذكر الموصول بعد التصريح بلفظ (الرب) ؛ تعظيما من شأن المولى– جل علاه– من جانب ، ومن جانب آخر تبدو قيمة استخدام الموصول هنا في أنه لا يتوصل إلى وصف المعارف بالجمل إلا من

---

١ ينظر السابق ص١٤٧

خلاله ؛ لما هو متعارف عليه من أن الجمل بعد المعارف أحوال لا صفات ، وفي ذلك يقول الإمام عبد القاهر – رحمه الله –:

" إنما اجتُلِب حتى إذا كان قد عُرِف رجل بقصة وأمر جرى له ، فتخصص بتلك القصة وبذلك الأمر عند السامع ، ثم أريد القصد إليه ذُكِر (الَّذي) "[١]

والله –عز وجل– قد اختص بصفة الإحياء والإماتة وأطلقهما على ذاته العليا اسمين من أسمائه –جل علاه– ، فذكر الموصول لأنه وحده اختص بذلك ؛ ليحمل المخاطب على الإقرار والإذعان ؛ إذ به تقرير بأن الذي يحيي ويميت هو الله –جل شأنه– لا أحد سواه.

واستخدم المضارع (يحيي ويميت) ؛ ليدل على تكرار الفعل من وقوع الإحياء والإماتة ليس على مر الأعوام والأيام فقط ، ولكن على مر الدقائق والثوان وربما أقل من ذلك ، فهو فعل متكرر ما دامت الحياة ، ثم في البعث بعد الممات تكرار شاهد على قدرة الواحد الأحد .

وبين لفظي (يحيي ويميت) طباق لا يقوم بخدمة زينة اللفظ فقط بقدر ما يقوم بإبراز دقة المعنى ؛ إذ بهذا التضاد تتبين قدرة الله –عز وجل–المطلقة التي لا حدود لها ، قدرة على الإماتة ، وقدرة مطلقة على الإحياء من الوجود (البعث)، والإحياء من العدم (بداية الخلق).

"قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ"

(قال قتادة ،ومحمد بن إسحاق ،والسدي وغير واحد : أنه أوتي بالرجلين قد استحقا القتل ، فأمر بقتل أحدهما فيقتل ، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل ... ، أراد

[١] دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني – قرأه وعلق عليه / محمود محمد شاكر ص٢٠٠ط٣ مطبعة المدني ١٤١٣هـ ١٩٩٢م

أن يدعي لنفسه هذا المقام عنادا ومكابرة ، ويوهم أنه الفاعل لذلك ، وأنه هو الذي يحيي ويميت.)[1]

ومعارضة النمروذ بادعائه الإحياء والإماتة بهذه الطريقة باطلة ؛فقد أراد إبراهيم –عليه السلام– بقوله:" ربي الذي يحيي ويميت"

(أراد الحياة والموت المشهودين في هذه الموجودات الحية الشاعرة المريدة... ولو كان نمروذ أخذ الكلام بالمعنى الذي له ، لم يمكن معارضته بشيء ، ولكنه غالط فأخذ الحياة والموت بمعناهما المجازي ... كما يقال الإحياء على تخليص إنسان من ورطة الهلاك ، وكذا الإماتة تطلق على التوفي وهو فعل الله ، وعلى مثل القتل بآلة قتالة .)[2]

وعبر بالماضي (قال) ؛ ليدل على تحقق وقوع القول من النمروذ ، فهنا يبدأ الرد الأول من النمروذ على حجة سيدنا إبراهيم –عليه السلام– .

واستخدم ضمير التكلم (أنا) ؛ ليبرز هيمنة الأنا الأعلى لدى النمروذ ؛ إذ وصل لأعلى درجات الاستكبار والطغيان بادعائه الربوبية .

ثم عبر بالمضارع (أحيي وأميت) ناسبا الفعل لنفسه ؛ ليناسب التعبير بالمضارع في قول إبراهيم –عليه السلام– :"ربي الذي يحيي ويميت" هذا من جانب ، ومن جانب آخر ؛ ليدل بالتعبير على تكرار وقوع الحدث ؛ ليثبت لنفسه القدرة المطلقة على الإحياء والإماتة غرورا وبطرا وتكبرا.

---

[1] تفسير ابن كثير ٦٨٦/١

[2] الميزان في تفسير القرآن للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ٣٥٥/٢ ط١ مؤسسة الأعلى للمطبوعات –بيروت– لبنان ١٤١٧هـ ١٩٩٧م

"قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ"

هنا انتقل سيدنا إبراهيم –عليه السلام– للحجة الثانية ، ولم يكثر معه الجدال في الحجة الأولى ؛ لعلمه بتمويهه وزيغه ، وقدرته على إقناع من حوله من خاصته مع الجهل خاصة ؛ إذ يسهل التأثير على الجاهل ، فلم يكن لقومه علم بأسرار الحياة والموت وغيرها ، فسهل عليهم تصديق النمروذ عندما قتل أحد الرجلين وعفا عن الآخر ؛ فانتقل سيدنا إبراهيم –عليه السلام– للحجة الأخرى ؛ من باب الوصول للهدف بالسبيل الأيسر لا الإصرار على السبيل الأعسر .

وذكر القول بالماضي ؛ ليحقق وقوعه ، وذكر (إبراهيم) بالعلمية للمرة الثالثة من باب التشريف وإعلاء القدر ، وعلى النقيض يذكر النمروذ بالضمير أو الموصولية من باب التحقير وإزدراء الشأن .

وعطف بالفاء في "فإن الله" ؛ ليبين سرعة بديهة سيدنا إبراهيم –عليه السلام– ووافر فطنته ، وقدرته على المحاجة ؛ إذ أسرع القول فرَدَّ على النمروذ بالحجة الثانية حاضرة في قلبه دون تأخر أو لجاج .

وعبّر إبراهيم –عليه السلام– بلفظ الجلالة (الله) في قوله: " قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ "، وهنا تتجلى المفارقة واضحة ؛ إذ كان التعبير في جانب إبراهيم–عليه السلام– من بداية الآية بلفظ الربوبية ، فقال تعالى في موضعين: "حاجّ إبراهيم في ربه" ، و " إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت" ، ويقابله التعبير في جانب النمروذ بلفظ الألوهية ، ولكن اختلف الأمر هنا ؛ فعدل في جانب إبراهيم عن لفظ الربوبية إلى لفظ الألوهية قائلا: "قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ" ؛ ليناسب بالعزة والقدرة والسلطان النابع من لفظ الألوهية استكبار النمروذ ؛ حيث ادعى لنفسه الإحياء والإماتة قائلا : "أنا أحيي وأميت" بضمير التكلم (أنا) المفعم بالكبر والطغيان ؛ فناسبه في هذا المقام أن يرد عليه

بقوله :" فإن الله " لا بأن يقول : (فإن ربي) ؛ ليستعلي بلفظ الألوهية على استعلاء الطاغية ، فهو استعلاء قاهر على استعلاء واهٍ يبيد الواهي ويمحوه ، وألحظ التأكيد بـ(إن) في قوله: "فإن الله" ، فلم يقل : (فالله) ؛ ليزيد من تقوية المعنى وتأكيده ؛ ليحلق باللفظ في جو من السيطرة والهيمنة المطلقة البيّن فيها الاستعلاء القاهر من الله –عز سلطانه–.

وعبَّر بالمضارع (يأتي) ؛ ليدل على تكرار وقوع الحدث ، فطلوع الشمس دورة حياتية متكررة في كل شروق تدل على أنه الواحد ، وخصها ؛ لأنها أشرف الكواكب يتجلى فيها إبداع الخالق.

وقوله : "فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ" أمر للتعجيز ؛ إذ يستحيل عليه وعلى غيره فعل هذا الشيء ، والخليل يعلم هذا جيدا ، ولكنه لما تكبر الطاغية وبغى ساق له الأمر التعجيزي ؛ ليبين له ضعف نفسه ، وهوان قدرته المزعومة ، وذكرها بالضمير في (بها) ؛ لقرب ذكرها سابقا .

وبين المشرق والمغرب طباق يبين قدرة الله –عز وجل– من جانب ، ويبين عجز غيره من جانب آخر.

"فَبُهِتَ[1] الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"

التعبير بلفظ (بُهِت) تعبير دقيق يوضح تلك الدهشة الممزوجة بالخيبة الصادمة والتي علت وجهه فتغير لون الوجه ، فهي من أدق الكلمات الدالة على الحالة النفسية التي اعترت هذا الطاغية الظلوم الجهول.

[1] بُهت: دُهش مأخوذا بالحجة ، وأُخذ بالحجة فشحب لونه / لسان العرب لابن منظور مادة (بهت) ط٦ دار صادر بيروت ١٤١٧هـ ١٩٩٧م

وعبَّر عنه بالموصول للمرة الثانية في قوله : "الذي كفر" تحقيرا من شأنه ، وتوصلا بالموصول للوصف بأنه كفر ، وصفا ليس بعده وصف في الحقارة والمهانة وسوء المنقلب.

وبنى الفعل (بُهِت) لما لم يسم فاعله ؛ لتذهب النفس فيه كل مذهب ؛ فترى أن الذي بهته الخليل إبراهيم –عليه السلام– ، أو بهتته الحجة الحق الفارقة ، أو فوق ذلك كله بهته الله –جل سلطانه– ، فتتشعب النفوس في إدراك المعنى ؛ مما يزرع فيها الشوق ، فالتأهب للمعرفة ، فالفكر ، فالوصول ، فاليقين بالمعنى، هذا ومن جانب آخر فإن عدم ذكر الفاعل هنا يناسب تلك البغتة المفاجئة التي دهمت الطاغية سريعا فبُهِت لها .

"وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"

"قال زيد بن أسلم : بعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكا يأمره بالإيمان ؛ فأبى عليه ، ثم دعاه الثانية فأبى ، ثم الثالثة فأبى ، وقال: اجمع جموعك وأجمعُ جُموعي ، فجمع النمروذ جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس ، وأرسل الله عليهم بابا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس ، وسلطها الله عليهم ؛ فأكلت لحومهم ودماءهم ؛ وتركتهم عظاما بادية ، ودخلت واحدة منها في منخري الملك ، فمكثت في منخريه أربعمائة سنة ؛ عذبه الله بها ، فكان يضرب رأسه بالمرازب[١]، في هذه المدة كلها حتى أهلكه الله بها.)[٢]

---

[١] المرازب: (ج) مرزبة ، وهي المطرقة الكبيرة تُكسر بها الحجارة /السابق مادة (رزب).

[٢] ينظر: البداية والنهاية للإمام الحافظ عماد الدين إسماعيل ابن كثير – اعتنى به: حسان عبد المنان ١/١٠٠ ط١ بيت الأفكار الدولية ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤م

وقوله تعالى: " وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" تذييل يناسب مضمون الآية ، ويتماشى مع تلك المحاجة التي بهتت الظالم ، عبَّر فيه بلفظ الجلالة ؛ إيقاعا للرعب في قلوب الظالمين جميعا .

ونفى فيها المضارع في (والله لا يهدي) ، لينفي وقوع الحدث نفيا متكررا ، فهداية الظالمين لا أمل فيها يتكرر ذلك مع تكرر وجود الطغاة على مر الأزمان والعصور .

ووصفهم بـ(الظالمين) وصفا يليق بهم ؛ إذ ظلموا أنفسهم جهلا قبل أن يظلموا غيرهم علما وعمدا ؛ فجزاهم الله بعدم الهداية –أعاذنا الله وإياكم– .

المبحث الثاني

من بلاغة الحوار بين موسى -عليه السلام- والسَّامري وأتباعه

قال تعالى:

" وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا(٩٨)"[١]

[١] سورة طه الآيات ٨٣: ٩٨

سار موسى –عليه السلام– ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون فأتوا " عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ[1]"

وواعده ربه ثلاثين ليلة ، ثم أتبعها بعشر فتمت له أربعين ليلة أي يصومها ، فسارع موسى –عليه السلام– إلى الطور مستخلفا أخاه هارون –عليه السلام– على بني إسرائيل ، ولهذا قال تعالى: "وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى "

" وظاهر السياق أنه سؤال عن السبب الذي أوجب لموسى أن يستعجل عن قومه ؛ فيحضر ميعاد الطور قبلهم ، كأنه كان المترقب أن يحضروا الطور جميعا ، فتقدم عليهم موسى في الحضور وخلفهم ، فقيل له: "وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى " ... والظاهر أن المراد بالقوم وقد ذكر أنهم على أثره هم السبعون رجلا الذين اختارهم لميقات ربه."[2]

والاستفهام إنكاري ، ينكر المولى –جل شأنه– على نبيه الكريم عجلته ، وتقدمه على قومه بإتيانه قبلهم .

" والمراد بالتعجيل: تقدمه عليهم لا الإتيان قبل تمام الميعاد المضروب ... ، وسؤال موسى –عليه السلام– عن سبب العجلة وهو سبحانه أعلم أن يعلمه أدب السفر ؛ وهو أنه ينبغي تأخر رئيس القوم عنهم ؛ ليكون بصره بهم ومهيمنا عليهم ، وهذا المعنى لا يحصل مع التقدم ألا ترى كيف علم الله تعالى هذا الأدب لوطا ، فقال –سبحانه– (واتَّبِع أدبَارَهُم) ، فأمره –عز وجل– أن يكون آخرهم."[3]

---

[1] الأعراف جزء آية ١٣٨

[2] تفسير الميزان ١٤/١٩٠

[3] روح المعاني ١٦/٢٤٢

(قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى)

لم يقل: يأتون على أثري ، ولكن قال: (هُمْ أُولَاءِ) بالضمير ثم بالإشارة ؛ لمزيد من التأكيد على كونهم تابعين له على قرب منه ، وأنه لم يبعد كثيرا عنهم.

وبلاغة التعبير هنا تكمن في الاعتذار من موسى –عليه السلام– إلى رب العزة ؛ إذ إن قول الله تعالى: (وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى) يقتضي خوف كليم الله –عز وجل– من غضب الله حبا وإرضاء لله –جل شأنه– ؛ ولذا عبَّر بالضمير ثم بالإشارة ؛ للتأكيد على قدومهم.

ثم استخدم لفظة (أثري) ، ولم يقل : هم أولاء يتبعوني ؛ ليبالغ في بيان شدة قربهم منه حتى كاد خطاهم تكون على أثر خطاه ، ولذا استخدم حرف الجر (على) ، ولم يقل: يأتون في أثري ؛ ليجعل خطاهم على أثر خطاه ؛ مما يزيد من مسافة اتباعهم له قربا.

ثم أتبع ذلك بقوله: (وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى)

وهي علة أخرى يبتغي بها رضا الله بعد العلة الأولى (هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي) ، استخدم فيها الفعل الماضي ؛ ليفيد تحقق وقوع العجلة منه ، ولكن تلك العجلة كانت لغاية وهي (إليك ، ولترضى) ، فالعجلة لم تكن لدنيا يصيبها ، ولكن كانت لله –عز وجل– ، ولذا خصها بقوله:(إليك) ، ولم يقل: وعجلت ربي لترضى ، حتى فصل بقوله:(إليك) ؛ ليخصص غايته ورغبته في الوصول سابقا والداعي إلى عجلته بكونها لله –عز وجل– فهو الأدعى الأوحد بأن تعجل النفوس إليه ، فكأن قوله تعالى:(إليك) عذر بعد عذر يلتمسه لرضا الرحمن.

وقدَّم قوله: (إليك) على لفظة (ربي) ؛ للتخصيص ؛ ليخص سبب وقوع العجلة بكونها إلى الله لا إلى سواه من ذكر أو صيت ، فقد سار متعجلا بشوقه إلى الله.

وفي التعبير بلفظة (ربي) مزيد من الاستعطاف وإظهار الشوق وبالغ الحنين الذي ملأ كوامنه فسار به إلى ربه .

ثم يضيف عذرا آخر فوق الأعذار السابقة ؛ وهو قوله: (لترضى) بلام التعليل مع صيغة المضارع التي تفيد تكرار وقوع الفعل ؛ ليدلل على تكرار الرغبة في الرضا فتلك كانت علته وغايته ، فهذه الجملة على اختصارها تحتوي عددا من الأعذار يستعطف بها كليم الله موسى –عليه السلام– ربه ؛ ما بين كونهم على أثره ، وكون عجلته إلى الله لا إلى دنيا يصيبها ولا هروبا من عبء على عاتقه ، ثم بكون غاية هذه العجلة رضا ربه –جلّ علاه–.

(قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ)

قوله:(قال): استئناف بياني فقد أثار الكلام السابق سؤالا فحواه: ماذا قال رب العزة ردا على أعذار موسى –عليه السلام– ؟ ، جوابه قوله تعالى: (فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ) .

" الفاء للتعليل ؛ يعلل به ما يفهم من سابق الكلام ، فإن المفهوم من قول موسى :(هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي) أن قومه على حسن حال لم يحدث فيهم ما يوجب قلقا ، فكأنه قيل: لا تكن واثقا على ما خلفتهم فيه ؛ فإنا قد فتنّاهم فضلوا."[1]

وأتت الجملة مؤكدة بـ(إن) و (قد) وبالماضي المقتضي لتحقق وقوع الفعل في قوله: (فتنا) ؛ ليؤكد وقوع الفتنة في قومه ، فهم ليسوا بخير كما توهم سيدنا موسى–عليه السلام–.

ووضع الظاهر (قومك) موضع المضمر ، فلم يقل: فإنا قد فتناهم ؛ ليؤكد وقوع الفتنة في القوم عينهم الذي ظهر من رد موسى –عليه السلام– أنهم بخير، وأنهم تابعوه على أثره.

[1] تفسير الميزان ١٤/١٩١

وعبَّر بالماضي في (أضلهم) ؛ ليحقق وقوع الضلالة موضحا سببها المتمثل في شخص السامري .

وإثبات الإضلال للسامري من باب المجاز العقلي ؛ فالله –عز وجل– يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء بحكمته ، ولكن لما كان السامري سببا في حدوث تلك الضلالة بما زينه لهم من اتخاذ العجل إلها صار كأنه فاعل الضلالة وهو سبب في حدوثها.

وبلاغة ذكر (السامري) هنا من باب التفصيل بعد الإجمال ؛ إذ في قوله: (فَتَنَّا قَوْمَكَ) إجمال لا يفهم منه سبب الفتنة ، وبذكر قوله: (وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ) تفصيل بعد هذا الإجمال يوضح الأمر ، ويرفع عنه الستار ؛ ليكشف الأمر أمام سيدنا موسى –عليه السلام–.

ووصل بين الجملتين (فتنا ، وأضلهم) ؛ للتوسط بين الكمالين فهما خبريتان، ومن محسنات وصلهما أن فعليهما ماضيان ، وفي الوصل تتابع لسير الحديث ، وكشف عن حقيقة الخطب الذي وقع بعد تركه لقومه.

وفي إضافة القوم لموسى–عليه السلام– في قوله: (قومك) ، –فلم يقل: فتنا القوم– ؛ رد مناسب بتلك الإضافة على سيدنا موسى–عليه السلام– في قوله: (هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي) ؛ ليؤكد أنهم ليسوا على ما تركهم عليه ، وليسوا على أثره كما ظن.

(فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا)

عطف بالفاء في (فرجع) ؛ ليبين سرعة عودته إلى قومه ، فقد آلمه ذاك الحدث الذي وقع في غيابه ؛ فبادر على الفور بالرجوع إليهم ليتبين الأمر.

(غضبان) صيغة مبالغة على زنة (فعلان) تبين بالغ الغضب والأسى الذي كان عليه موسى –عليه السلام– ؛ فالأمر يتعلق بالعقيدة ، وعبادتهم العجل ما

هي إلا هدم لما بناه سيدنا موسى–عليه السلام– من الدعوة في سنوات ، فاقتضى معرفته بكفرهم حالة الغضب التي كان عليها.

ولم يقل: حزينا ، ولكن قال (غضبان)[1]؛ لأن الحزن شعور داخلي أهدأ من الغضب يقتضي الانكسار والسكون ، أما الغضب فشعور تتجلى تبعاته على هيئة صاحبها الخارجية ، فهو فوران داخلي لا يكتفي بدواخل الإنسان ، بل يطغى حتى يفيض على جوارح الجسد كلها ؛ فيظهر في ملامح الوجه ، واضطراب حركة الجسد ، وربما اندفاعه ، فهو شعور أقوى من الحزن في ظهور رد الفعل ؛ مما يوضح الحالة النفسية السيئة التي كان عليها سيدنا موسى –عليه السلام– فور معرفته بالخبر .

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴾

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ أي ؛

" أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة ، وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم وإظهاركم عليه ، وغير ذلك من أياديه عندكم."[2]

و(وَعْدًا حَسَنًا) أي ؛ " التوراة التي فيها هدى ونور ، وقيل: ما وعدهم – سبحانه– من الوصول إلى جانب الطور الأيمن ، وما بعد ذلك من الفتوح في

---

[1] الغضب / استجابة لانفعال يتميز بالميل إلى الاعتداء ، والغضب من المخلوقين شيء يداخل قلوبهم ، ومنه محمود ومذموم ، فالمذموم ما كان في غير الحق ، والمحمود ما كان في جانب الدين والحق / اللسان مادة (غضب)

[2] تفسير ابن كثير ٥/٣١٠

الأرض والمغفرة لمن تاب وآمن ، وغير ذلك مما وعد الله تعالى أهل طاعته ، وعن الحسن الوعد الحسن: الجنة التي وعدها من تمسك بدينه."[١]

قوله: (قال) استئناف بياني ، فصل لشبه كمال الاتصال ؛ إذ اقتضت الجملة السابقة سؤالا فحواه: ماذا قال لهم موسى –عليه السلام– عندما رجع إليهم ؟ وأتت الجملة هنا جوابا عن السؤال وفيه تتابع بلاغي لسير الحوار .

وناداهم بالبعيد (يا قوم) ؛ لحزنه وشدة غضبه ؛ إذ اقتضى فعلهم الشنيع هذا بعدهم عن قلبه ، ولم يضف لفظة (القوم) إلى نفسه ، فلم يقل: (يا قومي) سخطا وغضبا ؛ إذ قرَّبهم فيما سبق ، وكان سببا في هدايتهم ، فما كان منهم إلا الكفر والجحود ؛ فأبعدهم عن قلبه بندائهم بـ(يا) للبعيد ، ولم يضفهم إلى نفسه ، فقال: (يا قوم).

وقوله: (أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا)استفهام تقريري مشوب بالإنكار ؛ يحملهم على الإقرار بالوعد الحسن ، وينكر عليهم كفرهم وجحودهم في حالهم التي خالفوا فيها ، وأسند الوعد إلى رب العزة ، فقال: (أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ) ؛ ليجعل من ذلك الوعد ميثاقا غليظا ؛ مما يعود على جحودهم بأشد السخط وأسوأ العقاب.

وعبَّر بلفظ الربوبية ، فلم يقل: ألم يعدكم الله ؛ ليبين لهم كيف كانوا بمنزلة رفيعة بإيمانهم ، ومن ثم كيف يتحول حالهم بعد كفرهم وجحودهم .

ونكَّر (وَعْدًا) ووصفه بـ(الحَسَن)؛ للتعظيم من شأن وعد الله الحسن ؛ ليقيم عليهم الحجة فيقهرهم ندما .

---

[١] روح المعاني ٢٤٥/١٦

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾

العهد: "**مدة مفارقة موسى إياهم حتى يكونوا آيسين من رجوعه ، فيختل النظم بينهم**."[1]

وعرَّف لفظة (العهد) بـ(أل) التي للعهد ؛ لأنه يتحدث عن عهد معلوم لهم فهي مدة مفارقته إياهم وهي فترة وجيزة تقتضي الثبات على الحق لا نكث العهد ، فتعريفها بـ(أل) التي للعهد يدعم التوبيخ المستفاد من الاستفهام في (أفطال).

ويتبع الاستفهام الإنكاري السابق باستفهام تعجبي ؛ متعجبا من حالهم ، فقد كانوا على وعد حسن مع الله ، فخانوا وخالفوا ولم يطل عليهم العهد ، فقد تركهم على ثقة أنهم سيتبعونه مستخلفا فيهم هارون –عليه السلام– فخالفوا الوعد ، فالاستفهام تعجبي مشوب بالتوبيخ ؛ لتقبيح حالهم البائس .

﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾

(أم) هنا " بمعنى بل ، وهي للإضراب عن الكلام الأول وعدول إلى الثاني ، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم. "[2]

" وكان إخلافهم موعده عكوفهم على العجل ، وتركهم السير على أثر موسى للموعد الذي كان الله –عز وجل– وعدهم."[3]

---

[1] تفسير الميزان ١٤/١٩١

[2] تفسير ابن كثير ٥/٣١٠

[3] جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري – تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي ١٦/١٣٢ ط١ دار هجر للطباعة والنشر – القاهرة ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م

عبَّر بصيغة الماضي في (أردتم) ؛ ليحقق وقوع تلك الإرادة ، فالبائس الماضي في شره يجلب الأذى لنفسه بعزم وإصرار ؛ لضلاله وتوهمه أن الخير فيما مضى إليه ، هذا إلى جانب أنهم عبدوا العجل بمحض إرادتهم ، فلم يجبروا على عبادته بل أصروا على الباطل إصرارا فجعل إصرارهم على الكفر إرادة في حلول الغضب عليهم ؛ لأنها مسببة عن كفرهم ، فهو من باب المجاز المرسل وعلاقته المسببية ، استخدم فيه صيغة الماضي ؛ ليحقق وقوع تلك الإرادة .

ونكَّر لفظة (الغضب) ؛ للتفخيم من قدره ، فليس بعد الكفر ذنب ، وجعل الغضب من الله –عز وجل– ؛ لأنه أقسى أنواع العقاب ، فهو العصيب الأعتى على النفوس –عفا الله عنا–.

وأضاف الموعد لنفسه ، فقال: (موعدي) ؛ " للقصد إلى زيادة تقبيح حالهم ، فإن إخلافهم الموعد الجاري فيما بينهم وبينه –عليه السلام– من حيث إضافته إليه–عليه السلام– أشنع من حيث إضافته إليهم."[١]

﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا﴾

أي؛ "ما خالفناك ونحن نملك من أمرنا شيئا ... ولم نصرف في صوغ العجل شيئا من أموالنا حتى نكون قاصدين لهذا الأمر متعمدين فيه ، ولكن كنا حاملين لأثقال من حلي القوم ، فطرحناها ، فأخذها السامري ، وألقاها في النار ، فأخرج العجل."[٢]

[١] روح المعاني ١٦/٢٤٥

[٢] تفسير الميزان ١٤/١٩٢

قالوا: استئناف بياني؛ حيث اقتضى ما سبق سؤالا فحواه : ما ردهم على موسى –عليه السلام–؟ وجاءت الجملة هنا جوابا على هذا السؤال ؛ وهو أن ردهم كان : (قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا) والاستئناف البياني يدعم الحوار القصصي في الآيات الكريمات ؛ حيث ينقل المتلقي إلى قلب الحدث ، ويؤثر شغفه لمعرفة نهاية الحوار.

(مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا) : أضافوا الموعد إليه –عليه السلام– ؛ ليتشاكل مع قوله سابقا: (أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي) ؛ وليكون قولهم هذا تمهيدا للتبرء من إخلاف الموعد ، وقوله: (مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا) إجمال يعقبه تفصيل في الاستدراك الآتي بيانه ؛ إذ إنهم في هذه الجملة يمهدون للحجة الواهية التي سيعتذرون بها عن عبادتهم العجل.

(وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا)

" الأوزار: جمع وزر ، وهو الثقل ، والزينة: الحلي كالعقد والقرط والسوار ، والقذف: الإلقاء والنبذ ... ، يعني كانت معنا أثقال من زينة القوم ، ولعل المراد به قوم فرعون."[1]

قيل: " ما استعاروه من القبط من الحلي بغرض التزيين في عيد لهم قبيل الخروج من مصر ... ، وقيل: هو ما ألقاه البحر على الساحل مما كان مع الذين غرقوا."[2]

و" حاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة ؛ أنهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم وعبدوا العجل ، فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر : أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض

[1] السابق ١٤/١٩٢

[2] روح المعاني ١٦/٢٤٦

إذا أصاب الثوب ، يعني؛ هل يصلي فيه أم لا ، فقال ابن عمر –رضي الله عنه– انظروا إلى أهل العراق قتلوا ابن بنت رسول الله –ﷺ– يعني : الحسين ، وهم يسألون عن دم البعوض."[١]

قال تعالى: (حُمِّلْنَا) ، بنوا الفعل فيه لما لم يسمَ فاعله ؛ ليرفعوا وزر حدوثه عن عاتقهم ، فلم يحملوا تلك الأثقال من الحلي بأنفسهم ، ولكن حُمِّلُوها ؛ أي أن تلك الأثقال من الحُلي أتتهم غنيمة دون السعي إليها ، وأكدوا هذا المعنى بقولهم: (فَقَذَفْنَاهَا) ؛ مما يوضح رغبتهم في إظهار عدم تعلقهم بتلك الحلي ، فلم تشغف قلوبهم بها بل تعففوا عنها ، وتلك حجتهم الواهية التي اعتذروا بها عن عبادتهم العجل ، فقد تعففوا عن الحلي الذي هو غنيمة محللة لهم ، وانغمسوا في عبادة العجل التي هي التيه والضلال بعينه.

وعبَّر بالماضي في قوله: (حُمِّلْنَا– فَقَذَفْنَاهَا) ؛ لتحقيق وقوعهما ، فهم يسردون الأحداث التي وقعت منهم بالفعل دون خجل أو شعور بالذنب.

(فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ)

"عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن هارون مرَّ بالسامري وهو ينحت العجل ، فقال له: ما تصنع؟ فقال: أصنع ما يضر ولا ينفع ، فقال هارون: اللهم اعطه ما سأل على ما في نفسه ، ومضى هارون ، فقال السامري: اللهم إني أسألك أن يخور ، فخار ، فكان إذا خار سجدوا له ، وإذا خار رفعوا رؤوسهم."[٢]

---

[١] تفسير ابن كثير ٣١١/٥

[٢] تفسير ابن كثير ٣١١/٥

﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾

" فكذلك: أي فمثل ذلك ألقى السامري أي: ما كان معه منها ، قيل: كأنه أراهم أنه أيضا يلقي ما كان معه من الحلي ؛ فقالوا ما قالوا على زعمهم ، وإنما كان الذي ألقاه التربة التي أخذها من أثر الرسول ... وقيل: إنه ألقى ما معه من الحلي ، وألقى مع ذلك ما أخذه من أثر الرسول."[1]

فكذلك ألقى السامري: أي مثل الذي فعلنا من الإلقاء فعل السامري فألقى حليه ، وعطف بالفاء ؛ لتدل على سرعة حدوث الفعل ، مما يعود على المعنى بلاغيا ببيان أنه سارع لإلقاء حليه كما فعلوا ؛ ليشاركهم في الأمر ، فيكون قدوة لهم ؛ ليزيد من حماسهم وإضلالهم بعبادة العجل.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾

" في لفظة الإخراج دلالة على أن كيفية صنع العجل كانت خفية على الناس في غير مرأى منهم حتى فاجأهم بإظهاره وإراءته ، والجسد هو الجثة التي لا روح فيه ، فلا يطلق الجسد على ذي الروح البتة ، وفيه دليل على أن العجل لم يكن له روح ، ولا فيه شيء من الحياة."[2]

عبَّر بالاسم (خوار) مقدما عليه الجار والمجرور (له) ، ولم يقل: يخور ، أحسبه –والله أعلم بمراده– أنه جعل الخوار صفة ثابتة للعجل متعلقة بإخراج السامري له على تلك الهيئة سواء كان ذلك بفعل دخول الهواء في هذا الجسد الأجوف ، أو بفعل قبضة التراب التي أخذها من أثر الرسول ، والمراد أن من صفات العجل أن له خوارا بطريقة ما ، ولم يقل: يخور ؛ –أحسبه والله أعلم بمراده– أن تجدد الإرادة لفعل الخوار النابع من صيغة الفعل المضارع خارجة عن

---

[1] روح المعاني ٢٤٧/١٦

[2] تفسير الميزان ١٩٢/١٤

حدود قدرة هذا العجل ؛ فهو مجرد دمية كبيرة صُنعت على هيئة مخصوصة تجعل لها خوارا ، ولا يخفى ما وصل إليه العصر الحديث من صناعات تجعل الدمى متحركة متحدثة ، فتلك صفات بصنعتها لا بفعل نابع من روح بداخلها يجعلها تهم بتلك الأفعال وقت ما تشاء وتمتنع عنها وقت ما تشاء ، فهي مجرد صفات بصنعتها ؛ لذا عبَّر –والله أعلم– بالاسم في قوله: (له خوار) ، ولم يقل: يخور.

﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾

" الضمير في (نسى) قيل: لموسى ، والمعنى: قالوا هذا إلهكم وإله موسى ، فنسي موسى إلهه هذا وهو هنا وذهب يطلبه في الطور ، وقيل: الضمير للسامري ، والمراد به نسيانه تعالى بعد ذكره والإيمان به ؛ أي نسي السامري ربه فأتى وأضلَّ القوم."[١]

عطف قوله: (إله موسى) على قوله: (إلهكم) ؛ ولم يكتف بقوله: (هذا إلهكم) ؛ ليكون مندوحة لهم في كفرهم.

وعطف قوله: (فنسي) بالفاء ؛ ليبين سرعة النسيان ، فإن كان الضمير فيه للسامري ، فالمعنى يعود عليه بالتقبيح لحاله ؛ إذ سرعان ما نسي فضل الله عليه فكفر وأضلهم ، وإن كان الضمير لموسى –عليه السلام– يكون التقبيح لحال بني إسرائيل ؛ إذ المعنى أن موسى –عليه السلام– نسي العجل ، فهم على هذا التفسير لم يكتفوا بذنب عبادة العجل حتى أضافوا إليه ذنبا آخر ، وهو ادعائهم أن العجل إله موسى–عليه السلام– فنسي وذهب يطلبه في مكان آخر ، فالذنب الأول كفر صريح ، والذنب الآخر إصرار على الكفر بغباء وعمى بصيرة .

[١] تفسير الميزان ١٤/١٩٣

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾

الاستفهام تقريري ينكر عليهم فعلهم ويقبحه ؛ إذ عبدوا من دون الله ما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا .

ونكَّر الألفاظ (قولا – ضرا – نفعا) ؛ للتقليل من قدرها ، فهذا العجل الذي عبدوه من دون الله لا يملك لهم شيئا من قول أو ضر أو نفع ولو بأقل القليل من ذلك.

والطباق بين (الضر والنفع) يبين عجز ما اتخذوه إلها من دون الله ؛ مما ينبئ ببيان جهلهم وخبث طبعهم.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾

قوله تعالى: (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ)

خبر إنكاري مؤكد باللام و(قد) والماضي الدال على تحقيق الوقوع ، نزَّل به غير المنكر منزلة المنكر ، فلم يظهر عليهم علامات الإنكار ؛ لتحقق وقوع الإرشاد من سيدنا هارون –عليه السلام– بل إنهم اعترفوا بأنفسهم لسيدنا موسى–عليه السلام– بأنهم من اتخذ العجل إلها بعد أن زينه لهم السامري ، ولكنهم لما لم يستجيبوا ، وصموا آذانهم ، وأغلقوا عقولهم نزَّلهم التنزيل الحكيم منزلة المنكر ، فأكد لهم الخبر بأكثر من مؤكد ؛ ليبدد أحلامهم في التماس العذر، وكأنه يخبرهم أن لا حجة لهم ولا عذر لديهم ؛ فلقد نصحهم هارون–عليه السلام– فلم يذعنوا للنصح وأصروا واستكبروا استكبارا ، هذا ومن جانب آخر يعد التأكيد على وقوع النصح من هارون –عليه السلام– توطئة لنفي التقصير عن جانب سيدنا هارون–عليه السلام– ، فقد أتم استخلافه على القوم على أحسن وجه إلا إنهم طغوا حتى خرج طغيانهم عن سيطرة هارون –عليه السلام– ففي

التأكيد تبرئة لهارون–عليه السلام– من التقصير في الأمر ، ولذا قال: (من قبل)؛ ليوضح أنه نصحهم قبل وقوعهم في الطغيان ؛ فلم يستجيبوا ، ولجوا فيه.

وناداهم بالبعيد (يا) ؛ لبعدهم عن الحق ، ولم يضفهم إلى نفسه ، فقال: (يا قوم) ، ولم يقل : يا قومي ؛ لبعدهم عن ذلك التكريم بفعلتهم الشنعاء.

واستخدم أسلوب القصر في قوله:(إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ) ؛ ليؤكد على وقوعهم في الفتنة باتخاذهم العجل.

وتبدو بلاغة الذكر الحكيم في استخدامه (إنما) دون غيرها من طرق القصر ؛ لتنزيل المنكر منزلة غير المنكر، وجعل الفتنة بالعجل أمرا مسلما به لا يحتاج إلى تأكيد مع إنهم منكرون لذلك ظانون أن العجل إلههم وإله موسى – عليه السلام– فنسي ، فكان من حقهم التأكيد بالنفي والاستثناء بأن يقول: ما فتنتم إلا به ، ولكن التنزيل الحكيم جعله أمرا مسلما به تنبيها على غبائهم وقلة وعيهم ، فكون العجل فتنة فتنوا بها أمرا مسلما به لا يحتاج إلى تأكيد ، وإن ظنوا خلاف ذلك ؛ فالنقص في عقولهم لا في هذا الأمر المسلم به.

ووضع المضمر موضع المظهر في قوله: (إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ) ، ولم يقل: فُتنتم بالعجل ؛ تحقيرا لشأنه ، فليس ذا مقام يُذكر حتى يُعاد ذكره بلفظه الصريح ؛ وليدركوا بالغ مهانتهم ؛ إذ اتخذوا هذا المصنوع إلها من دون الله–جل علاه–.

وأكَّد قوله تعالى: (وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي) ؛ بـ(إنَّ) ؛ليرفع الشبهات في توهم العجل إلها .

فهو " تأكيد لتوبيخهم ، وزيادة تقرير لجرمهم ، والمعنى : أنهم – مضافا إلى عدم تذكرهم بما تذكرهم به ضرورة عقولهم وعدم انتهائهم عن عبادة العجل إلى البصر والعقل– لم يعتنوا بما قرعهم من طريق السمع أيضا ، فلقد قال لهم

نبيهم هارون إنه فتنة فتنوا بها ، وإن ربهم الرحمن- عز اسمه- ، وإن من الواجب عليهم أن يتبعوه ، ويطيعوا أمره."[1]

وذكر المولى -جل شأنه- بلفظ الرحمن النابع من الرحمة ؛ تذكيرا برحمة الله -عز وجل- ، فهو الغفور الرحيم ؛ لعلهم يرجعون إلى صوابهم ، فهو من فتح باب التوبة أمامهم ، ولهذا عطف بقوله: (فَاتَّبِعُونِي) وأتبعها بقوله: (وَأَطِيعُوا أَمْرِي) وكانت تغنيه واحدة منهما ، ولكنه تأكيد على تأكيد ؛ ليقيم عليهم الحجة هذا من جانب ، ومن جانب آخر ؛ ليبين جهد سيدنا هارون -عليه السلام- في إنارة السبيل لهم ، وإظهار طريق الحق ؛ ليقيم عليهم الحجة ، فيرتفع عنهم العذر.

(قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى)

قوله تعالى: (قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ) من باب الاستئناف البياني ، فقد اقتضت الجملة السابقة سؤالا فحواه: ما كان ردهم على هارون-عليه السلام- ؟ وأتت الجملة هنا جوابا على هذا السؤال ، وهو جواب يوضح استكبارهم ومعاندتهم ؛ إذ ردوا على الحق بالضلال ، وبينوا إصرارهم على الكفر.

واستخدم اسم الفاعل (عاكف) وجمعه ؛ ليبين ثبوتهم على الضلال ، وإصرارهم عليه.

حتى: لانتهاء الغاية ، وقد يتوهم أنهم جعلوا غاية كفرهم رجوع موسى في قولهم: (حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى)، ولكن " الظاهر من حالهم أنهم لم يجعلوا رجوعه -عليه السلام- غاية للعكوف على عبادة العجل على طريق الوعد بتركها

[1] تفسير الميزان ١٤/١٩٣

لا محالة عند رجوعه ، بل ليروا ماذا يكون منه –عليه السلام– ، وماذا يقول فيه."[١]

وذلك لأنهم لم يعودوا لرشدهم بعد عودة موسى –عليه السلام– بل ظلوا على طغيانهم بعد رجوعه ، ولكن كان جوابهم هذا من باب التملص من الحق ، والحياد عنه عنادا واستكبارا ، فردهم هذا على هارون–عليه السلام– كان من باب المماطلة الحمقاء.

(قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي)

وعندما عاد سيدنا موسى–عليه السلام– نادى أخاه بـ(يا) البعيد ؛ لأنه كان في حالة قصوى من الغضب والثورة ؛ ظنا منه أن أخاه هارون قصَّر في الأمر ، واستخدم الأفعال الماضية في (رأيتهم– ضلوا) ؛ ليوضح أنه تحقق من ضلالهم بالرؤية والعلم.

واستخدم الاستفهام التعجبي في قوله: (أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي) تعجبا مما رآه من ضلال القوم في حضرة هارون " أي شيء منعك حين رؤيتك لضلالهم من أن تتبعني وتسير بسيري في الغضب لله تعالى والمقاتلة ... روي ذلك عن مقاتل، وقيل: في الإصلاح والتسديد ... ، واستظهر أبو حيان أن يكون المعنى: ما منعك من أن تلحقني إلى جبل الطور بمن آمن من بني إسرائيل."[٢]

---

[١] روح المعاني ٢٥٠/١٦

[٢] السابق ٢٥٠/١٦

﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾

قال: استئناف بياني يدعم الأسلوب الحواري في القصة ، وقوله تعالى: (يَا ابْنَ أُمَّ) من باب التعطف والاسترحام " ترفق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه ؛ لأن ذكر الأم ها هنا أرق وأبلغ أي في الحنو والعطف."[1]

والنهي في قوله: (لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي) للالتماس " ويظهر أنه أخذ بلحيته ورأسه غضبا ؛ ليضربه كما أخبر به في موضع آخر (وأخذ برأس أخيه يجره إليه)."[2]

وقوله تعالى:(إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي) جملة اسمية تدل على الثبوت والدوام ، بدأها بـ(إن) المؤكدة ؛ ليؤكد على خشيته وقوع الضرر من حدوث الفرقة في القوم لو أخذهم بالشدة ، أو الاستبداد بالرأي دون الرجوع لأمر موسى –عليه السلام– لو استأثر بالرأي فيهم.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ[3] يَا سَامِرِيُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾

هنا وجَّه النبي موسى –عليه السلام– السؤال للسامري ، والاستفهام على حقيقته يبغي به معرفة ما حمله على هذا الفعل ، وكيف فعله .

وقد تعددت الأقاويل في السامري ، فهو " عند الأكثر كما قال الزجاج: كان عظيما من عظماء بني إسرائيل من قبيلة تعرف بالسامرة ، وهم إلى هذه الغاية

---

[1] تفسير ابن كثير ٣١٢/٥

[2] تفسير الميزان ١٩٤/١٤

[3] الخطب: الحال والشأن ، والأمر الشديد يكثر فيه التخاطب/ اللسان مادة (خطب)

يعرفون بالسامريين ، وقيل: هو ابن خالة موسى–عليه السلام– ، وقيل: ابن عمه ... ، وقيل : كان من القبط ، وخرج مع موسى–عليه السلام– مظهرا الإيمان ، وقيل: كان من عبّاد البقر ، وقع في مصر ، فدخل في بني إسرائيل بظاهره وفي قلبه عبادة البقر ، واسمه قيل: موسى بن ظفر، وقيل: منجا ، والأول أشهر ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس: أن أمه حين خافت أن يُذبح خلفته في غار وأطبقت عليه ، فكان جبريل –عليه السلام– يأتيه فيغذوه بأصابعه في واحدة لبنا ، وفي الأخرى عسلا ، وفي الأخرى سمنا ، ولم يزل يغذوه حتى نشأ ، وبالجملة كان عند الجمهور منافقا يظهر الإيمان ويبطن الكفر."[١]

"(قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ) أي: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ، (فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ) أي: من أثر فرسه."[٢]

قيل:"إن السامري رأى جبريل وقد نزل على موسى للوحي ، أو رآه وقد نزل راكبا على فرس من الجنة قدام فرعون وجنوده حين دخلوا البحر فأغرقوا ، فأخذ قبضة من تراب أثر قدمه ، أو أثر حافر فرسه."[٣]

فصل قوله تعالى: (قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ) عن الجملة السابقة؛ لشبه كمال الاتصال ، فما سبق استدعى سؤالا فحواه: ما رد السامري على موسى – عليه السلام– ؟ والجملة هنا إجابة عن السؤال.

وقوله: (بصرت) فعل ماض أفاد تحقق وقوع الفعل ، وعطف عليه قوله تعالى: (فقبضت) بالفاء ؛ ليبين سرعة رد الفعل ، فما إن أبصر جبريل –عليه السلام– حتى همَّ فأخذ قبضة من أثره ؛ ليستغلها في الشر.

---

[١] روح المعاني ٢٤٤/١٦

[٢] تفسير ابن كثير ٣١٣/٥

[٣] تفسير الميزان ١٩٥/١٤

وبين (بصرت –يبصروا) جناس اشتقاق إلى جانب أنه يزين اللفظ يمنح المعنى شيئا من التأكيد ، وكأن السامري ينبه على أن له خصوصية دون غيره ، وهي رؤية رسول الله جبريل –عليه السلام– ومن ثم أخذ قبضة من أثره أو من أثر حافر فرسه.

﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾

" أي زينته وحسنته ... حاصل جوابه أن ما فعله إنما صدر عنه بمحض اتباع هوى النفس الأمارة بالسوء لا لشيء آخر من البرهان العقلي ، أو النقلي ، أو من الإلهام الإلهي ... ، ما ذكر من بعد الكفر والإضلال من السامري بعد أن عرف نبوة موسى –عليه السلام– في غاية السقوط ، فقد قال تعالى: (وَجحدُوا بِهَا واسْتيقنتهَا أَنفسهم) ، وليس كفر السامري بأبعد من كفر فرعون وقد رأى ما رأى."[1]

ومعنى هذا أنه كفر فأصرّ على الكفر مع علمه أنه على غير بينة.

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾

" قال فاذهب: قضاء بطرده عن المجتمع بحيث لا يخالط القوم ، ولا يمس أحدا ولا يمسه أحد ، بأخذ أو عطاء أو إيواء أو صحبة أو تكلم وغير ذلك من مظاهر الاجتماع الإنساني ، وهو من أشق أنواع العذاب ... ، وقيل: إنه دعاء من موسى عليه ، وأنه ابتلي إثر دعائه بمرض عقام لا يقترب منه أحد إلا حمي حُمى شديدة ؛ فكان يقول لمن اقترب منه: لا مساس لا مساس ، وقيل: ابتلي

[1] روح المعاني ١٦/٢٥٤

بوسواس ؛ فكان يتوحش ويفر من كل من يلقاه ، وينادي: لا مساس ، وهو وجه حسن لو صحّ الخبر."[١]

عطف بالفاء في قوله: (فاذهب)؛ لتعجيل العقوبة بعد تبين كفره ، وإصراره على إضلال القوم ، وأكّد جملة (فإن لك) بـ(إنّ) ؛ لتقوية الحكم ، وقدّم الجار والمجرور (لك) ؛ للاختصاص ، فقد اختص بتلك العقوبة التي طردته من رحمة الله ، ومن وجوه البشر ، ومن رحمة كل ذي رحمة ؛ فقُضي عليه أن يعيش منبوذا من العالم أجمع.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ﴾

وهنا تأكيد آخر يبين عقوبته في الآخرة ، فالأمر لا يقتصر على عقاب الدنيا بل له في الآخرة عذاب أليم يعلمه الله تعالى.

وقدَّم الجار والمجرور (لك) ؛ لتقوية الحكم ، فالجميع مرجعهم إلى الله بين محسن ومسيء ، ولكنه قدّم ؛ ليؤكد على تحقق ذلك المرجع ؛ مما يبث الحسرة والندامة في قلبه ، فلن يحيا مطرودا من البشر لا مساس بهم فقط ، بل وسيحيا ينتظر ذلك الموعد المشؤوم عليه ؛ لكفره وضلاله.

﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾

الأمر في قوله: انظر: للتحسير ، فهو يحسره على فعلته الشنعاء ، ويحقر من أمر إلهه المزعوم ، بل وينسفه نسفا أمام عينيه ، فهي للسامري حسرة على حسرة ، وندامة على ندامة ، وعقوبة لا مثيل لها ما بين طرد من رحمة الله ،

[١] تفسير الميزان ١٤/١٩٧

وطرد من إيواء البشر ، وحرق لإلهه المزعوم أمام عينيه ، ونسفه نسفا ، ثم إن له موعدا في الآخرة لن يتخطاه.

وأضاف الإله إلى ضمير السامري ، فقال: (إلهك) ؛ ليخصه به ؛ لمزيد من بث الألم والحسرة في قلبه إذا ما تم حرقه ونسفه ، وفيه شيء من السخرية والتهكم استهزاء بالسامري وإلهه .

واستخدم الموصول (الذي) ؛ تحقيرا لشأن هذا الإله الذي لا ينفع ولايضر.

وقوله: (ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا) من باب التحسير ، فهو هدم لما بناه ، وظل له صانعا ، ثم عليه عاكفا عابدا ، فالشيء إذا بُذل فيه مجهود ثم ضاع أو هلك يكون لضياعه حسرة أكبر مما لو كان غير ذي قيمة عند صاحبه ، وهذا العجل الذي صنعه السامري كان ذا قيمة عنده بدليل أنه أضل القوم به وظل عليه عاكفا عابدا ، لذا يذكره سيدنا موسى –عليه السلام– بأن هذا الجهد ضائع ، وأن ما ظلت عليه عاكفا سنحرقه ثم ننسفه ؛ لتلحق بك الحسرة والندامة في الدنيا قبل الآخرة ، هذا ومن جانب آخر ؛ ليبين للسامري أنه عبد ما لا يملك لنفسه دفاعا ، فهو عاجز عن دفع الضر عن نفسه فكيف عمن عَبَدَهُ.

وعطف بـ(ثم) بين (لَنُحَرِّقَنَّهُ) و (لَنَنْسِفَنَّهُ) ؛ ليعطي للتحريق شيئا من التراخي حتى يحرق حرقا لا استعجال فيه ، وفي هذا التراخي زمن من حرق قلب السامري معه ، فالتأني في حرق العجل يحرق معه كيان السامري نفسيا.

وأكد الحرق والنسف بنون التوكيد ، ثم بالمفعول المطلق (نسفا) ؛ لمزيد من بث الحرقة والحسرة في قلب هذا الكافر المعاند .

وبين (لَنَنْسِفَنَّهُ) و (نسفا) جناس اشتقاق لا يزين اللفظ فقط بقدر ما يلعب تكرار حرف السين المهموس فيه دورا لبث الأسى في نفس السامري ، وكأنه موت ببطء.

﴿إنما إِلَهُكُم اللّهُ الذي لا إله إلا هُوَ وسِعَ كُلَّ شَيءٍ عِلْماً﴾

وهنا يختم القصة بتلك الآية البديعة التي ابتدأها بالقصر بـ(إنما) ؛ لأنها قضية بديهية مسلم بها قد قامت عليها الأدلة والبراهين منذ نشأة الوجود ، ففي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد.

ويؤكد بقوله تعالى: (الذي لا إلـهَ إلا هُوَ) ، ثم يذيل الآية بقوله: (وَسِعَ كُلَّ شَيءٍ عِلْمًا)، وإذا نظرت إلى هذا التذييل وجدته مناسبا تمام التناسب مع بداية القصة التي أخبر فيها الله –عز وجل– نبيه موسى بأن قومه ليسوا بخير في حين كان موسى –عليه السلام– يجهل ذلك ، فقد ابتدأها –جل علاه– بقوله: (ما أعجلك عَن قَومِك يا مُوسَى) ، ورد موسى –عليه السلام– على دون علم بما حدث لقومه قائلا: (هُم أولاء عَلى أثري) ، فأخبره العليم الذي وسع كل شيء علما بأن (قَد فتنا قَومك وأضلهم السَّامري) ؛ فناسب ختام القصة بقوله تعالى: (إنما إِلَهُكُم اللهُ الذي لا إلـهَ إلا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيءٍ عِلْمًا) ؛ لأن فيها تأكيد على الوحدانية ، وعلى إحاطة علم الله بكل شيء ، فهو العليم لا تخفى عليه خافية.

المبحث الثالث

من بلاغة التنزيل في ذكر جدال قارون مع قومه

" إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)"[١]

[١] سورة القصص الآيات ٧٦: ٨٣

ورد ذكر قارون في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع ، ذُكر مقترنا بفرعون وهامان في موضعين منهما ، أحدهما في سورة العنكبوت في قول الله تعالى:

" وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ "[١]

والآخر في سورة غافر

" وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ "[٢]

وورد ذكره مستقلا بقصته كاملة في سورة القصص في الآيات السابق ذكرها بداية من قول الله تعالى: "إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ"

والآيات السابقة لقصة قارون تتحدث عن بغي المشركين فقد تعالوا على الإيمان قائلين كما ورد في التنزيل: "إِنْ نتَّبع الهُدَى مَعك نُتَخطَّف مِن أَرْضِنا" ، فحذرهم الله –عز وجل– قائلا –جل علاه–: " وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ "[٣]

ثم ضرب لهم قصة قارون مثلا ؛ للتشابه بين حاله وحالهم في الكفر الذي أودى بقارون إلى سوء العاقبة :

---

[١] العنكبوت ٣٩

[٢] غافر ٢٣–٢٤

[٣] القصص ٧٤–٧٥

" بيَّن أن قارون أوتيها واغتر بها ، ولم تعصمه من عذاب الله كما لم تعصم فرعون وجنوده وأمواله ، ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه."[1]

فالرابط بين القصة وما سبقها من الآيات هو التحذير من سوء الحال والمآل؛ ليتدبروا آياته، وليعتبر أولوا الألباب.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ**﴾

كان قارون من قوم موسى "أي من بني إسرائيل ، واختلف في جهة قرابته من موسى –عليه السلام– ، فروي عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– ... أنه ابن عم موسى –عليه السلام– ... ، وفي مجمع البيان عن عطاء ... أنه ابن خالة موسى –عليه السلام– ، وعن محمد بن إسحاق أنه عم موسى – عليه السلام– ...، وكان يسمى المنور ؛ لحسن صورته ، وكان أحفظ بني إسرائيل للتوراة وأقرأهم ولكنه نافق كما نافق السامري ، وقال إذا كانت النبوة لموسى والمذبح والقربان لهارون فما لي ؟ وروي أنه لما جاوز بهم موسى–عليه السلام– البحر ، وصارت الرسالة والحبورة لهارون ؛ يقرب القربان ، ويكون رأسا فيهم ، وكان القربان إلى موسى ، فجعله موسى إلى أخيه ؛ وجد قارون في نفسه ؛ فحسدهما ، فقال لموسى: الأمر لكما ، ولست على شيء ، إلى متى أصبر ، قال موسى –عليه السلام– هذا صُنع الله تعالى ، قال: أو الله تعالى ! لا أصدقك حتى تأتي بآية ، فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل واحد بعصاه ، فحزمها وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها ، وكانوا يحرسون

[1] الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي – تحقيق: د/ عبد الله عبد المحسن التركي ٣١٢/١٦ ط١ القاهرة ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م

عصيهم بالليل ، فأصبحوا وإذا بعصا هارون تهتز ولها ورق أخضر ، وكانت من شجر اللوز ، فقال قارون: ما هو بأعجب مما تصنع من السحر."[١]

ومن الكلام السابق يتبين أن مبدأ الشرك عند قارون كان من الغيرة الممزوجة بالكبر والبطر ، أحرق قلبه مكانة هارون من موسى –عليهما السلام– وهارون –عليه السلام– كان رسولا يشد عضد أخيه قال عنه الذكر الحكيم: (سَنَشُدُّ عَضدَك بأخيكَ ونجْعلُ لكُما سُلطانًا [٢]) ، وخاطبه وموسى –عليهما السلام– بألف الاثنين قائلا: (قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ)[٣] ، (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)[٤]، (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)[٥]

فسيدنا هارون–عليه السلام– له مكانته وجهده في دعوة بني إسرائيل ، ولكن قارون وجد في نفسه وجدا شديدا منه ومن موسى –عليه السلام– ، حتى إنه ورد في بعض الروايات أنه حاول أن يلصق به تهمة الزنا ببغيّ لولا أن نجاه الله ، ونطقت تلك البغيّ بالحق فبرأت موسى –عليه السلام–.[٦]

---

[١] روح المعاني ١١٠/٢٠

[٢] القصص جزء آية ٣٥

[٣] الشعراء آية ١٥

[٤] طه ٤٣–٤٤

[٥] طه ٤٧

[٦] ينظر: تفسير الميزان ٨٥/١٦

افتتح الذكر الحكيم الحديث عن قارون بالجملة الاسمية (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى) مؤكدة بـ(إن) ؛ لترفع الشك من توهم أن قارون كان بعيدا عن موسى لم يصله من ذكر الله شيء ، فقد كان على مقربة من موسى يتلو التوراة ، ويعلم أوامر الله ونواهيه ، وذاك أبلغ في بيان استحقاقه العقاب ، فالتأكيد على أنه من قوم موسى له مغزى لا يتوقف عند حد معرفة قرابته فقط ، بل يرفع عنه العذر في الطغيان ، فمن كان من رسل الله أقرب ولكتب الله أقرأ فذنبه في الكفر أكبر ، –والله أعلم–.

واستخدم الماضي في قوله تعالى: "فبغى عليهم" ؛ ليحقق وقوع الطغيان والتكبر من قارون على بني إسرائيل بغير وجه حق.

﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾

"بُولغ في كثرة مفاتيحه ، فروي عن خيثمة أنها كانت وقر ستين بغلا أغر محجلا ما يزيد منها مفتاح على إصبع لكل مفتاح كنز ، وفي رواية أخرى عنه كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود ، كل مفتاح على خزانة على حدة ، فإذا ركب حُملت المفاتيح على سبعين بغلا أغر محجلا."[1]

والآية كناية عن كثرة كنوزه ، فإذا كانت المفاتيح تنوء بحملها العصبة ، فما حال الكنوز نفسها .

وقوله: (أولي القوة) احتراس وتكميل من توهم أن العصبة ضعيفة لم تقو على حمل المفاتح ؛ مما يعطي دلالة واضحة عن عظم ثراء قارون ، ووفير نعمة ربه عليه.

[1] روح المعاني ١١١/٢٠

(إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ) يعني الصالحين من بني إسرائيل.

(لَا تَفْرَحْ) نهي على سبيل النصح والإرشاد ، والفرح المنهي عنه هو البطر على سبيل المجاز المرسل ، فقد (فُسر الفرح بالبطر ، وهو لازم الفرح والسرور المفرط بمتاع الدنيا ، فإنه لا يخلو من تعلق شديد بالدنيا يُنسي الآخرة ويُورث البطر الأشر ، ولذا قال تعالى: "وَلا تفْرحُوا بمَا آتاكُم والله لا يُحِب كل مُختال فخُور" ، ولذا أيضا علل النهي بقوله : "إنَّ الله لا يُحب الفرِحِين".)[١]

ومعنى هذا أن النهي متعلق بفرح البطر المجاوز للحد لا نهي عن كل فرح بدليل قول الله تعالى: "قُل بفضل اللهِ وبرحمتهِ فبذلك فليفرحوا" ، وقوله تعالى: "يومئذ يَفْرح المؤمنُون بنصرِ الله" .

وقوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ" تذييل مؤكد لمنطوق الجملة السابقة ومعلل لها ، وهو على الضرب الجاري مجرى المثل ، وجاءت جملته مؤكدة بـ(إن)؛ ليرفع توهم ضد المعنى من عقل قارون وأمثاله ممن تطلع لزينة الدنيا وزخرفها وتناسى عواقب الأمور.

وبين لفظتي (تفرح – الفرحين) جناس اشتقاق يزين اللفظ ، وإلى جانب ذلك تلعب اللفظتان دور العلة والمعلول ، فقولهم لقارون (لا تفرح) يقتضي منهم تفسيرا قويا وسببا مقنعا بعد أن فتنته أمواله وأعماه حب الثروة والفخر والتباهي بها ، وقوله تعالى: " إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ" سبب مقنع يدعوه وهو عاقل أن يكف عن الفرح المبالغ فيه المورث للبطر والغرور والتعالي على الخلق.

[١] تفسير الميزان ١٦/٧٦

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾

(أي: واطلب فيما أعطاك الله من مال الدنيا تعمير الدار الآخرة بإنفاقه في سبيل الله ، ووضعه فيما فيه مرضاته تعالى.)[1]

والأمر في (ابتغ) للنصح والإرشاد ، فهو نصح بعد نصح ، واستخدم الموصول (ما) في قوله تعالى:(فيما آتاك) ؛ للتعظيم من قيمة ما آتاه الله ، فقد أنعم الله عليه بالمال الوفير.

وبنى الفعل لما سُمي فاعله وهو لفظ الجلالة ؛ ليذكره أن ثروته كلها بفضل من الله ومنته ، لا بذكائه.

ولذا قدَّم الجار والمجرور على المفعول (الدار الآخرة) ؛ للاهتمام بشأن المقدم وتقوية الحكم فيه ، فالإيتاء والمنع من الله –جل علاه–.

﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾

نهي للنصح والإرشاد ، فطاعة الله لا تحرم صاحبها من متع الدنيا ، ولكن بالقدر الحلال الذي لا يقتضي بطرا ولا استكبارا.

﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾

أمر للنصح والإرشاد يذكره فيه بنعم الله عليه ، ويذكره بفعل الواجب عليه لشكر تلك النعم .

﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾

نهي يتمم به سلسلة النصائح التي وجهها له أهل الصلاح من قومه ، وعرَّف لفظة (الفساد) بـ(أل) الجنسية ؛ لتشمل جنس الفساد بما يندرج تحته من

[1] السابق ١٦/٧٧

أنواع ؛ وذلك لأن من تمكن بماله وقوته دون تقوى من الله سهُل عليه البغي والفساد.

وقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) تذييل مؤكد لمنطوق الجملة السابقة من الضرب الجاري مجرى المثل ، يدعو به قارون أن يتخلى عن بغيه وفساده حتى يخرج من زمرة المغضوب عليهم.

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

"أجاب بنفي كونه إنما أوتيته إحسانا من غير استحقاق ودعوى ، أنه إنما أوتيته على استحقاق بما عنده من العلم بطرق اقتناء المال وتدبيره وليس عند غير ذلك ... ، وهذه المزعمة التي ابتلي بها قارون فأهلكته ... مزعمة عامة بين أبناء الدنيا ؛ لا يرى الواحد منهم فيما ساقه إليه التقدير ووافقته الأسباب الظاهرة من عزة عاجلة وقوة مستعارة إلا إن نفسه هي الفاعلة له ، وعلمه هو السائق له إليه ، وخبرته هي الماسكة له ولأجله ، وإلى عموم هذه المزعمة ... يشير قوله تعالى :(وإِذَا مَسَّ الإنسان ضرٌّ دَعانَا ثم إذا خولناهُ نعمةً منَّا قَال إِنَّمَا أُوتيتُهُ على عِلمٍ بَل هي فِتنتةٌ ولكنّ أكثرهُم لا يَعْلمُون)."[1]

(قَالَ): استئناف بياني ، فسلسلة النصائح السابقة اقتضت سؤالا فحواه: ما رد قارون على تلك النصائح ؟ ، وجاءت الجملة هنا جوابا على هذا السؤال : (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي) ، وهي إجابة تدل على بالغ الاستكبار ، يعلن فيها نسيانه فضل الله عليه وجحوده ، وينسب الفضل في ذلك لنفسه.

ومن بالغ غروره أنه لم يكتف بقوله: (أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ) حتى زاد لفظة (عِنْدِي) ؛ ليخص نفسه بالعلم البالغ حد إحراز تلك الثروة كلها دون الرجوع

[1] تفسير الميزان ١٦/٧٨

لفضل الله عليه ، وهي إجابة حمقاء تنم عن إنكار وجحود لعظيم منة الله عليه ، إجابة تشتم فيها رائحة الشرك نابعة من رأس الكبر الأعمى.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾

(أَوَلَمْ يَعْلَمْ) استفهام تعجبي ، فقارون كان قارئا للتوراة على علم بأحوال الأمم السابقة ممن كانوا أشد منه قوة وأكثر جمعا ، ولكنه الكبر الذي ألقى الغشاوة على قلبه.

واستخدم الذكر الحكيم صيغة الماضي (أهلك) مسبوقة بحرف التحقيق (قد) ؛ ليؤكد وقوع الهلاك على القرون السابقة ، ووصول علم تلك الأحداث لقارون.

واستخدم الموصول (من) في قوله تعالى: (مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا)؛ للتفخيم من قوة هؤلاء الطغاة أصحاب القرون السابقة ، ولم يعجزوا الله شيئا أيعجزه قارون –تعالى الله–.

و(أشد) و (أكثر) أفعل تفضيل يعلو بالشدة والكثرة إلى أقصى درجاتها عند الإنسان ؛ مما يبين بالغ قوتهم ووافر جمعهم فيما مضى ، فلم يعجزه من سبق بقوته وجمعه ، ولن يعجزه قارون بعلمه وماله.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾:

أن " الله سبحانه لعلمه بحقيقة الحال لا يسأل المجرمين عن ذنوبهم ، وإنما يقضي عليهم قضاء ؛ فيأتيهم عذاب غير مردود ... وأما قوله تعالى: (وقفوهم إنهم مسؤلون) ؛ فهو سؤال تقريع وتوبيخ لا سؤال استعلام ، ويمكن أن يكون

السؤال في الآيتين بمعنى واحد ، والنفي والإثبات باعتبار اختلاف المواقف يوم القيامة ، فيسألون في موقف ولا يسألون في آخر ، فلا تناقض بين الآيتين."[١]

والآية كناية عن شمول علم الله وإحاطته بكل ما دقّ وصغر ، فالله –جل علاه– في غنى عن سؤال المجرمين عن ذنوبهم ؛ لأنه بها أعلم.

واختص المجرمين ؛ لأن ذنوبهم أكثر وأوسع من أن يتذكرها أصحابها ، فقد يخفى عليهم بعض ما ارتكبوه من جرم نسيانا لكن الله لا تخفى عليه خافية ، وعنده كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وفي الآية تخويف لقارون لعله يرتدع.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

"قال قتادة: خرج هو وحشمه على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر ، منها ألف بغلة بيضاء ، وعلى دوابهم قطائف الأرجوان ، وقال السدي: خرج في جوار بيض على سروج من ذهب على قطف أرجوان ، وهن على بغال بيض عليهن ثياب حمر وحلي ذهب ، وقيل: خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان ، وعليها سرج من ذهب ، ومعه أربعة آلاف خادم عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر ، وعلى يمينه ثلثمائة غلام ، وعلى يساره ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلي والديباج."[٢]

(فخرج): عطف على (قال) ، والرابط المعنوي بينهما الاستمرار في الطغيان والاستكبار ، فلم يعتد بنصائح قومه ولا تحذيراتهم ، بل لجَّ في طغيانه فخرج على قومه في زينته متعاليا عليهم ومفتخرا.

---

[١] تفسير الميزان ١٦/٨٠

[٢] روح المعاني ٢٠/١٢١

واستخدم الماضي (خرج) ؛ ليحقق خروجه متعاليا ، بينما استخدم المضارع في (يريدون) ؛ ليبين تجدد تلك الإرادة ، فالمتطلع للدنيا سواء باستماتة عليها أو للتمتع ببعض ملذاتها تجد في نفسه تلك الرغبة متجددة تطل برأسها حينا بعد حين ، وتزداد إذا رأت من أحوال الدنيا ما يرغبها فيها ، وخروج قارون بهذه الصورة أثار هؤلاء للتطلع إلى زينة الدنيا تطلعا بعد تطلع ، وكأن نفوسهم لا تزال تحدثهم حديثا تلو الآخر أن لو يكون لهم من المتع الدنيوية مثل ما لقارون ؛ لذا استخدم المضارع ، فقال: (يُرِيدونَ الحيَاة الدُّنيا).

وقوله: (يا ليت) صيغة تزيد البعيد بعدا ؛ إذ (ليت) للتمني ، و(يا) للبعيد ، فهو بعد على بعد ؛ وذلك لأنه وإن تطلعت نفوسهم لمتع الدنيا ورغباتها ، إلا إنهم يدركون في قرار أنفسهم أن ما لقارون كان ثروة عظيمة من البعيد عليهم أن يحوزوا مثلها.

وقدَّم الجار والمجرور (لنا) على قوله: (مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ) ؛ للتخصيص ؛ ليخصوا أنفسهم بتلك الرغبة التي يتمنون تحقيقها ، واستخدم الموصول (ما) ؛ للتفخيم من قدر ثروة قارون.

وتذييل الآية بقوله تعالى:(إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) يتناسب مع تلك الرغبات وهذه الأمنيات ، فمن وجهة نظرهم يرون أن قارون ذو حظ عظيم ، ولاقتناعهم بهذا أكدوا بـ(إنّ) واسمية الجملة ، فهو في نظرهم حاز ما تمنوه شغفا ؛ فجعلوا له الحظ ، منكرين لفظة (حظ) ؛ للتفخيم من قدر ذلك الحظ ، ونعتوه بـ(عظيم) ؛ للتأكيد على ما يدور بخلدهم ، وما تشرأب له نفوسهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾

"الويل: الهلاك ، ويستعمل للدعاء بالهلاك ، وزجرا عما لا يرتضى ، وهو في المقام زجرا عن التمني ، والتلقية: التفهيم ، والضمير على ما قالوا للكلمة المفهومة من السياق ، والمعنى: وما يفهم هذه الكلمة، وهو قولهم: (ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) إلا الصابرون ، وقيل: الضمير للسيرة أو الطريقة ، ومعنى (تلقيها) فهمها ، أو التوفيق للعلم بها."[١]

وصل بين القول السابق: (قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) ، وقوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) ؛ للتوسط بين الكمالين ، فكلتاهما خبرية فعلها ماض ، وهو من محسنات الوصل ، وفي الوصل ربط للأحداث وإبراز لفكر المخلصين الصابرين ، وردهم على المترددين المحبين للدنيا ؛ نصحا وإرشادا.

وبنى الفعل (أوتوا) لما لم يسم فاعله ؛ للعلم به فهو العليم يهب علمه لمن يشاء من عباده.

وجملة (ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ) تخلو من المؤكدات ؛ لأن الخبر فيها لا شك فيه ، فالخير من الله لمن آمن وعمل صالحا ، لا شك في ذلك ، وفي ختامها تأكيد بالنفي والاستثناء في قوله تعالى: (وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ) ؛ أي ولا يتعقل ذلك ويعمل به إلا الصابرون ، وهو حق وواقع مشهود ، فالبشر أغلبهم يعلمون أن الخير من الله حتى إن المشركين أنفسهم كانوا يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى كما ورد في الذكر الحكيم ، قال تعالى: (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا

[١] ينظر: الميزان ١٦/٨٠-٨٢

مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)[1]، (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)[2].

فأغلب الخلق يعلمون أن الخير من الله ، وأن ثواب الله خير ؛ لذا طرح لهم الخبر عاريا من التأكيد ، فإذا وصلوا إلى العمل بما علموا تقهقروا ونكسوا على رؤسهم ، فالعلم بأن ثواب الله خير معروف ، لكن العمل بمقتضى الحصول على ذلك الثواب عصيب إلا على الصابرين ، لذا أكد في ختام الآية بالقصر نفيا واستثناء ، هذا ومن جانب آخر ؛ ليرفع توهم الخير في الدنيا الزائلة لدى محبيها خاصة الذين بهرهم خروج قارون في زينته.

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ)

هنا ينزل عليه عقاب الله خسفا به ، و(بداره) احتراسا من توهم الخسف به فقط دون ماله ، فقد ذهب وداره بما يحويه من كنوز ذهابا بلا رجعة إلا ليوم الحساب الأكبر.

وبالنظر إلى حرف الجر (من) في قوله تعالى:(فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ) قد يظن بعضهم للوهلة الأولى أنه حرف زائد ، كما رأى النحويون ، فهم يرون أن (من) تأتي:

"زائدة ؛ لتفيد التنصيص على العموم ، وتسمى الزائدة ؛ لاستغراق الجنس ، وهي الداخلة على نكرة لا تختص بالنفي نحو : ما في الدار من رجل."[3]

---

[1] سورة الزمر جزء آية ٣

[2] الزمر جزء آية ٣٨

[3] الجنى الداني في حروف المعاني للحسن بن قاسم المرادي – تحقيق/ د. فخر الدين قباوة ، أ. محمد نديم فاضل ص٣١٧ ط١ دار الكتب العلمية ببيروت– لبنان ١٤١٣هـ ١٩٩٢م

وقد نبهووا على استغراق الجنس في هذا الموضع إلا إنهم نظروا إليها على أنها زائدة ، ووجود (من) في الآية الكريمة ليس كحذفها ، فهي تفيد معنى جليلا في الآية الكريمة ، وذلك أنه لو قال: فما كان له فئة ينصرونه ، لتوهم أن الفئة التي كا نت تناصره قبل الخسف به قُضي عليها خسفا مع الخسف به ، أو تَخَلَّوا عنه لما رأوا مصيره من انتهاء سلطته وضياع ماله ، وليس هذا المراد ، بل إن المراد أنه لم تكن له من فئة ناصرة أي فئة كانت ، سواء في ذلك من كانت معه تناصره قبل الخسف ، أو غيرها ، فالنفي استغرق الجنس كله ، حتى انعدمت عنه الفئات الناصرة كلها ، فوجود (من) قبل النكرة في حيز النفي أكد على استغراق النفي للفئات الناصرة جميعها ، وذلك أبلغ وأتم للمعنى من حذفها.

وعبَّر بالمضارع في (ينصرونه) ، ولم يقل: فئة ناصرة من دون الله ؛ لينفي تجدد وقوع الحدث ، فما كان له من ينصره في وقت شدته ، ولا بعد ذلك ولو بالكلم الطيب ، فقد انقطع دابره ، وانقطعت نصرته لا تتجدد ولو على مر القرون.

و(من) في قوله تعالى: (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ) ؛ لبيان الجنس ، أي وما كان من جنس الذين انتصروا ، أخرجه بالنفي من زمرة المنتصرين ، وفيه تذكير لمن أرادوا الحياة الدنيا في عصره ، وبعده من سائر العصور.

والجملة تذييل مؤكد لمنطوق القول السابق (فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ) ، فهو تأكيد على تأكيد يبين به عاقبة الظالمين.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾

في التعبير بـ(أصبح) دون غيرها كأضحى أو أمسى تقوية لانتشار القول في وقت الصباح ؛ إذ فيه ينشط الناس ، ويكثر الكلام عن شتى الأحداث ، فإذا كان الحدث جليلا خطيرا فكلام الصباح فيه أكثر وأوسع انتشارا.

ويعني بالموصول (الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ) من قالوا في آية سابقة :(يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ) .

والتعبير بـ(الأمس) قد يكون على حقيقته ، أو على المجاز على سبيل الاستعارة ؛ حيث شبَّه أقرب وقت تمنوا فيه ما لقارون بالأمس ، بجامع المضي في الزمن ، ثم استعار الأمس لذلك على سبيل الاستعارة الأصلية.

وتبدو بلاغتها في بيان قرب انتهاء أمر قارون ، فلم يمهل على الدنيا طويلا مع استكباره وطغيانه.

"وي: اسم فعل بمعنى: أعجب ، قال الشاعر:

وَيْ كأن من يكن له نَشَبٌ يُحبب ومن يفتقر يَعش عيش ضُر[1]

" وي: كلمة تندم ، وربما تستعمل للتعجب ، ... وهي اعتراف منهم ببطلان ما كان يزعمه قارون وهم يصدقونه ؛ أن القوة والجمع في الدنيا بنبوغ الإنسان في علمه وجودة تدبيره ... ، استعملوا في كلامهم (كأن) ؛ للدلالة على ابتداء

[1] الجنى الداني ٣٥٣

ترددهم في قول قارون وقد قبلوه وصدقوه من قبل ، وهذه صناعة شائعة في الاستعمال."[١]

والتعبير بالمضارع (يبسط ويقدر) فيه دلالة على تكرار وقوع الفعلين ، فالله ينزل بقدر ما يشاء يرزق به قرونا تتلوها قرون ، وأجيالا يتبعها أجيال.

وتعليقهم بسط الرزق بقدر بمشيئة الله تعالى في قوله:(يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ) دلالة على أنهم أخذوا عبرة وعظة مما حدث لقارون ، فأصبحوا بعد الخسف به على يقين بأن بسط الرزق يؤتيه الله من يشاء بحكمته.

﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾

لولا: حرف امتناع لوجود ، امتنع الثاني ؛ وهو الخسف بهم لوجود الأول ؛ وهو منة الله عليهم.

والمضارع المنفي (لا يفلح) يفيد نفي الفلاح عن الكافرين في كل زمان وعلى مر العصور، ويدعم ذلك (أل) للجنس في لفظة (الكافرون) ، والتي تنفي حدوث الفلاح لجنس الكافرين على اختلاف أشكالهم وعصورهم وصور كفرهم.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

يختم الذكر الحكيم قصة قارون بتلك الآية الكريمة التي تنص على أن الخير الدائم لأهل الصلاح لا لمن أراد علوا واستكبارا.

ويعبر الذكر الحكيم عن الدار الآخرة بلفظة الإشارة (تلك) ؛ تعظيما وتفخيما لشأنها.

---

[١] تفسير الميزان ٨٢/١٦

ونكَّر لفظة (العلو) ؛ للتقليل ، والعلو هو الاستكبار والاستعلاء بالنفس والمال على الخلق ، وتنكير اللفظة للتقليل يفيد أن الدار الآخرة ليست للمستكبرين في الأرض ، ولو بأقل قدر من الكبر ، ولهذا عن ابن مسعود قال رسول الله –ﷺ– :

"لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"[1] .

وقد علّق الذكر الحكيم نيل خير الدار الآخرة دار الحسنى على ترك إرادة العلو والفساد في الأرض لا على ترك حصولهما ، فقال تعالى:

(تِلك الدارُ الآخرة نَجْعلهَا للذينَ لا يُريدونَ علوًا فِي الأرضِ ولا فَسَادًا) ، وفي ذلك تشديد وتحذير من مجرد إرادة الاستعلاء أو التفكير فيه ، فإرادة الاستعلاء تحرم صاحبها من الدار الحسنى ، فما الحال لو أراد وهمَّ وفعل ، لابد أن عاقبته أشد ؛ لذا حذَّر الذكر الحكيم من مجرد إرادة الاستعلاء ، وفي ذلك يقول صاحب الكشاف:

" لم يعلق الموعد بترك العلو والفساد ، ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما ، كما قال: (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) ، فعلّق الوعيد بالركون ، وعن علي –رضي الله عنه– : أن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه ؛ فيدخل تحتها ، وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال : ذهبت الأماني ههنا ، وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يرددها حتى قُبِض."[2]

---

١ صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري– تحقيق /محمد فؤاد عبد الباقي – كتاب الإيمان باب تحريم الكبر حديث ٩١ / ط٣دار إحياء التراث العربي –بيروت د.ت

٢ الكشاف ٨١١

وتُذيل الآية الكريمة بقوله تعالى: (والعَاقبةُ للمُتَّقِين) ؛ لأنه لا يصبر على إرادة العلو في أمور حياته ما صغر منها وما كبر إلا المتقون الصابرون ، فالجنة برحمة الله وفضله لمن صبر وغفر صبر على شهوات نفسه وعلى هفوات البشر ، ولا يلقاها إلا الصابرون.

المبحث الرابع

الخصائص البلاغية المشتركة للحوار الجدلي في القصص الثلاث

بالنظر إلى القصص الثلاث أجد بعض الخصائص البلاغية المشتركة مع اختلاف المواقف والأزمنة والأشخاص.

- **أول تلك الخصائص هو الاشتراك في عنصر التشويق الظاهر في بداية القصص الثلاث ؛ لبث الشغف في النفوس ، وتحريك الداعي لمتابعة الحوار ، وذلك عن طريق البيان بعد الاستفهام ، أو التفصيل بعد الإجمال.**

فمما ورد فيه البيان بعد الاستفهام ؛ قصة النمروذ ؛ حيث ابتدأها الذكر الحكيم بالاستفهام في قوله تعالى: " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ " ؛ مما يبث عنصر التشويق في نفس النبي محمد –ﷺ وكل من سمع الآية أو تلاها ؛ لمعرفة ماذا حدث للذي حاجّ إبراهيم في ربه ، فما إن تاقت النفوس لمعرفة ما حدث ؛ يأتي الإبلاغ الكاشف عن ماهية الأمر بعد ذلك الاستفهام المشوق ؛ فتتمكن المعرفة من القلب وترسخ في الذهن مع بقاء الشغف لمعرفة باقي الحوار.

وبالأسلوب نفسه افتتح الذكر الحكيم قصة سيدنا موسى –عليه السلام– مع السامري ؛ حيث ابتدأها بقوله تعالى: " مَا أعجلكَ عَن قومِك يا مُوسَى" ، وهو استفهام يبث الخشية في قلب موسى –عليه السلام– من رب العزة –عز وجل– ؛ فردّ بالتبرير لعجلته المتمثل في كون استعجاله؛ لنيل رضا الله–عز وجل– ، وإن كان الاستفهام في حد ذاته مشوقا لمعرفة سبب السؤال ، ومن هنا يأتي البيان من الله –عز وجل– المتمثل في قوله تعالى " فَإِنَّا قد فَتنَّا قَومَك من بعْدِكَ وَأضلَّهُمُ السَّمريُّ".

أما قصة موسى –عليه السلام– مع قارون فلم تجر علي مجرى البيان بعد الاستفهام كما جرى في قصة النمروذ والسامري ، ولكنها أتت على طريقة التفصيل بعد الإجمال ؛ حيث أجمل الذكر الحكيم في قوله تعالى: " إن قَارونَ كانَ مِن قَومِ مُوسَى فبغَى عليهِم " ، وهنا تتوقف نفوس السامعين عند قوله تعالى : " فبغى عليهم" ؛ لمعرفة كيف بغى ؟ وبماذا ؟ ولماذا بغى ؟ ، يعقب هذا الإجمال تفصيل بيّن متمثل في قوله تعالى : " وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ " وقوله تعالى: " قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي " ، ومن هنا يتبين اشتراك الحوار الجدلي في القصص الثلاث في الابتداء بعنصر التشويق المتمثل في البيان بعد الاستفهام ، أو التفصيل بعد الإجمال.

- **من تلك الخصائص البلاغية المشتركة في الحوار الجدلي في القصص الثلاث التوجيه والإرشاد المتمثل في التراكيب الإنشائية من الأمر والنهي والاستفهام والنداء والتحذير والإغراء.**

فإذا نظرت إلى الجدال في قصة النمروذ وجدت سيدنا إبراهيم –عليه السلام– يقول له: "فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ " ، وهو أسلوب أمر وإن كان الغرض منه التعجيز وإفحام الخصم إلا إن في طيه شيئا من التوجيه ، فإبراهيم –عليه السلام– غرضه الأول؛ دفع الكافر إلى الإيمان ، فدعوة الرسل جميعا دعوة هداية غرضها الأول التوجيه والإرشاد.

وكذا في الحوار بين موسى –عليه السلام– وأتباع السامري إلا إن التوجيه والإرشاد بالأساليب الإنشائية يتجلى واضحا في هذا الموضع ؛ حيث يستخدم موسى –عليه السلام– النداء "يَا قَوْمِ" يعقبه الاستفهام "أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا" ، "أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي "

وهو استفهام تعجبي يحمل في طيه الإرشاد والتوجيه لعلهم يرجعون إلى رشدهم وهو الأسلوب نفسه الذي اتبعه هارون –عليه السلام– معهم ؛ حيث استخدم النداء التوجيهي قائلا: " يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي "

ويلعب النداء دورا واضحا في ذلك الحوار ؛ إذ يستخدمه موسى –عليه السلام– مع السامري وقد أسبقه بالاستفهام قائلا : " فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ".

وكما لعبت الأساليب الإنشائية دورا بارزا في التوجيه والإرشاد في الحوار مع السامري وأتباعه لعبت ذلك الدور في الحوار مع قارون ؛ إذ يكثر الأمر والنهي في قصة قارون ؛ للنصح والإرشاد وذلك في مثل قوله تعالى: " لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ" ، "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ" ، "وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا"، "وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ" ، "وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ "

- **من الخصائص البلاغية في المواضع الثلاثة أيضا إلقاء الحجج والبراهين في الحوار الجدلي ؛ لإقناع الخصم ، ومن ثم يرد الخصم بحجة وبرهان آخر ؛ ليقنع أحدهما الآخر ، أو ليفحم أحدهما الآخر.**

ففي الحوار الجدلي بين إبراهيم –عليه السلام– والنمروذ ألقى له سيدنا إبراهيم الحجة في قوله: " رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ"، وقد أحضر شخصين فقتل أحدهما وترك الآخر ، فيرد عليه إبراهيم –عليه السلام– حجته بقوله تعالى: " فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ" ؛ فأُفحم الذي كفر ، أو بالتعبير الأمثل :" فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ " ، فقد كشفت تلك الحجة عن فطنة سيدنا إبراهيم –عليه السلام– ، وأهمية ذلك في الحوار الجدلي خاصة ؛ لقطع دابر المراوغة ؛ بإزالة أسبابها .

وفي الحوار بين موسى –عليه السلام– وأتباع السامري ذكَّرهم بالوعد الحسن الذي وعده الله لهم بقوله تعالى: " أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا" ؛ وتلك حجة عليهم أن نجاهم من فرعون وعمله ، ونجاهم من القوم الظالمين بعد أن قتّل أبناءهم واستحيا نساءهم وسلب أموالهم ، فتلك حجة قوية عليهم لا ينكرها، ولا ينساها أرباب العقول ، فكان ردهم عليه : " مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا" ؛ ردا لا يتناسب مع السؤال تشعر فيه بالهروب من تحمل مسؤولية كفرهم.

أما حجة السامري فكانت في قبضته التي قبضها من أثر الرسول والمتمثل في قوله تعالى:" بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا " وكأنه ببصره هذا ارتقى لمرتبة تسمح له بالكفر وإضلال الناس ، فبطلت حجته وحجة أتباعه بإنزال العقوبة الدنيوية به والوعد بالعقاب في الآخرة ، قال تعالى: فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ" ، ثم بحرق العجل ونسفه نسفا ، أمامهم جميعا والمتمثل في قوله تعالى:" لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا".

أما عن حجة القوم مع قارون فقد تمثلت في قوله تعالى:" وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ" ، ورده عن تلك الحجة كان :" إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي" ، وهنا يتكفل الذكر الحكيم بالرد على حجته التي نسب فيها حوزة الرزق لنفسه ولاجتهاده بعلمه ، بقوله تعالى: " أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ".

- **ومن خصائص الأسلوب الحواري في المواضع الثلاثة ؛ هيمنة الأنا الأعلى النابع من الاستكبار والعلو في الأرض بغير وجه حق .**

يتضح ذلك جليا في الحوار مع النمروذ ؛ إذ قال : " أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ" ؛فادعى لنفسه الألوهيه استكبارا وعلوا ، وترك الجملة عارية من التأكيد وكأنها قضية مسلم بها .

وقال السامري: " وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي"

أي بغير وجه حق دعته نفسه استكبارا على الله وعلوا في الأرض أن يجعل لنفسه إلها ، وهو يعلم أن الله هو الواحد الأحد ، ولكن نفسه سولت له ذلك ؛ استكبارا.

وقال قارون : " إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي" ولم يستخدم النفي والاستثناء بل قصر بـ(إنما) وكأنها قضية مسلم بها ؛ فخصّ نفسه بحوزة الرزق بذاته ، وجعل ذلك بعلمه واجتهاده لا بقدر الله ، وفي ذلك العلو والاستكبار والطغيان ؛ ولذا ختم الله تعالى قصته بقوله تعالى: " تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ"

فمبدأ الكفر عند الثلاثة هو الاستكبار والاستعلاء بغير وجه حق ، ولو عدنا بالدنيا إلى بداية الخلق لوجدنا مبدأ الكفر عند إبليس كان الاستكبار والاستعلاء ؛ إذ قال: " أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ"[1] ؛ فهيمنة الأنا الأعلى واضحة خير وضوح في قوله تعالى : " أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ".

[1] سورة ص ٧٦

- **وأخيرا وليس آخرا من تلك الخصائص اشتراكهم جميعا في الرد الأحمق ، " قال الطيبي: إن جوابهم هذا من باب الأسلوب الأحمق ، نقيض الأسلوب الحكيم ؛ لأنهم قالوه عن قلة مبالاة بالأدلة الظاهرة ، كما قال نمروذ في جواب الخليل- عليه السلام- : (أنا أحي وأميت)."[1]**

فرد النمروذ كان :" أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ" بقتل أحدهما وترك الآخر ، وهو يعلم في قرار نفسه أن حجة سيدنا إبراهيم ليست عن القتل أو ترك القتل ، ولكن عن بثّ الروح بالإحياء من عدم ، ونزعها بالإماتة بدون آلة قتل.

ورد السامري: " بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ " وكأنه اختص بميزة دعته إلى الكفر ، ثم في قوله : " وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي " ؛ بمعنى أنه يعلم أن نفسه التي سولت له ذلك ومع ذلك يكفر ، فشابه رده قول الكافرين : " وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ "[2]

ورد قارون كان : " إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي" ، وعلمه أتاه من الله ومن قراءة التوراة وكتب العلم التي أخبرته عن القرون السابقة ؛ عن الأشد قوة والأكثر جمعا فأهلكهم الله بكفرهم ، فهو رد أحمق يضرب بنصائح القوم عرض الحائط.

---

[1] روح المعاني ١٦/٢٥٠

[2] الأنفال آية ٣٢

الخاتمة

الحمد لله ذي الجلال المنفرد بالكمال ، والصلاة والسلام على حبيب الرحمن محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد ،،،

تحدثت عن شيء من بلاغة الذكر الحكيم في المواضع التي تضمنها البحث؛ فبلاغة القرآن الكريم أجل وأعمق من الوصول إلى أسرارها كافة ، وقد تمخض البحث عن نتائج أذكر منها:

- لعبت الأساليب الإنشائية دورا بليغا في التوجيه والنصح والإرشاد ، وذلك لأن الهدف الأول من حوار الأنبياء مع أقوامهم هو هداية الخلق.
- تنوعت التراكيب من حيث وجود التأكيد ؛ لتقوية الحكم في مواضع ، وتركه في مواضع أخرى حسب ما يقتضيه السياق.
- ورد حديث الطغاة عن أنفسهم عاريا عن التأكيد في بعض المواضع ؛ لتنزيل غير الممكن منزلة الممكن ، وكأن ما ينسبونه لأنفسهم من ادعاء الإلوهية ، أو الاختصاص بإجراء أسباب الرزق أمر مسلم به ؛ استكبارا منهم وعلوا في الأرض.
- نوَّع الذكر الحكيم في استخدام المفردات ذات الدلالة المتقاربة كل حسب الأنسب له في سياقه وغرضه.
- التزَمَ الطغاة مبدأ الحياد عن الحق ، والتلاعب بأساليب الحوار ، والرد الأحمق ؛ هروبا من الإلزام بالحجة والبرهان ، ودفعا للحق بالباطل.
- نبع ادعاء الألوهية والكفر بالله –تعالى شأنه– من منبع استكبار النفس واستعلائها بغير وجه حق عند الطواغيت الثلاث ، وانتهى الحوار الجدلي في المواضع الثلاثة بنصرة الحق ، وقهر الطغاة جميعا.

فهرس المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود محمد بن محمد العمادي ، دار إحياء التراث العربي ببيروت- لبنان د.ت
- الإيضاح لقوانين الإصلاح في الأدب والمناظرة – تحقيق: محمود السيد الدغيم ط١ مكتبة مدبولي ١٩٩١م
- البداية والنهاية للإمام الحافظ عماد الدين إسماعيل ابن كثير – اعتنى به: حسان عبد المنان ، ط١ بيت الأفكار الدولية ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤م
- التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور ط١ الدار التونسية للنشر د.ت
- التعريفات لعلي بن محمد الجرجاني –تحقيق/ إبراهيم الإبياري ط١ دار الريان للتراث د.ت
- تفسير القرآن العظيم للحافظ أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي – تحقيق/ سامي بن محمد السلامة ط٢ دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري – تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي ط١ دار هجر للطباعة والنشر – القاهرة ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م
- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي – تحقيق: د/ عبد الله عبد المحسن التركي ط١ القاهرة ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م
- الجنى الداني في حروف المعاني للحسن بن قاسم المرادي – تحقيق/ د. فخر الدين قباوة ، أ. محمد نديم فاضل ط١ دار الكتب العلمية ببيروت- لبنان ١٤١٣هـ ١٩٩٢م
- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني – قرأه وعلق عليه / محمود محمد شاكر ط٣ مطبعة المدني ١٤١٣هـ ١٩٩٢م

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة أبي الفضل شهاب الدين البغدادي – تصحيح وتعليق : السيد محمود شكري البغدادي ط١ دار إحياء التراث العربي ببيروت – لبنان د.ت
- صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري– تحقيق /محمد فؤاد عبد الباقي ط٣دار إحياء التراث العربي –بيروت د.ت
- في أصول الحوار / الندوة العالمية للشباب الإسلامي ط١ دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٩هـ ١٩٩٨م
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله الزمخشري – تعليق: خليل مأمون شيحا ط٣ دار المعرفة ببيوت– لبنان ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م
- لسان العرب لابن منظور ط٦ دار صادر بيروت ١٤١٧هـ ١٩٩٧م
- المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسن بن محمد الأصفهاني ط١ مكتبة نزار مصطفى الباز ١٤١٨هـ ١٩٩٧م
- المنهاج في ترتيب الحجاج / أبو الوليد الباجي– تحقيق/ عبد المجيد تركي ط٣ دار الغرب الإسلامي ببيروت ٢٠٠١م
- منهجية الحوار الجدلي في القرآن الكريم والسنة النبوية د/ أحمد إدريس الطعان ط١ دمشق د.ت
- الميزان في تفسير القرآن للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ط١ مؤسسة الأعلى للمطبوعات –بيروت– لبنان ١٤١٧هـ ١٩٩٧م

محتويات البحث

الموضوع
المقدمة
التمهيد الحوار والجدال ، ووجه اشتراكهما في الدلالة
المبحث الأول من بلاغة الخطاب في جدال النمروذ مع سيدنا إبراهيم –عليه السلام–
المبحث الثاني من بلاغة الحوار بين موسى –عليه السلام– والسامري وأتباعه
المبحث الثالث من بلاغة التنزيل في ذكر جدال قارون مع قومه
المبحث الرابع الخصائص البلاغية المشتركة للحوار الجدلي في القصص الثلاث
الخاتمة
فهرس المصادر والمراجع
محتويات البحث